منتدى مكتبة الإسكندرية

أرنست همنغواي

في زماننا

قصص قصيرة

أرنست همنغواي

في زماننا

ترجمة :
سمير عزت نصّار

دار الشروق للنشر والتوزيع
ص.ب ٩٢١٦٤٣ - عمّان - الأردن

* أرنست همنغواي : في زماننا
ترجمة سمير عزت نصار
* الطبعة العربية الأولى ١٩٨٧
* جميع الحقوق محفوظة
* الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
ص . ب ٩٢٦٤٦٣ عمان ـ الأردن
هاتف ٦٢٤٣٢١

* التوزيع : المركز العربي لتوزيع المطبوعات . ش . م . م .
ص . ب ٥٠٥٧/ ١٣ (شوران) ـ بيروت ـ لبنان .

* تصميم الغلاف : نجاح طاهر .

هذه هي الترجمة الكاملة لـ Ernest Hemingway's
In Our Time and the Snows of Kilimianjaro
طبعة : Granada (Panther Books) 1981

٨٢٣
همنغـ همنغواي ارنست
ارنست همنغواي في زماننا/ ارنست همنغواي، سمير عزت نصار .
ـ عمان : دار الشروق للنشر، ١٩٨٧ . (٢٥٢ ص) .
ر . أ (٢٥٢/ ٦/ ١٩٨٧)
١ ـ القصة العربية المترجمة أ ـ العنوان ب ـ سمير عزت نصار (مترجم)
(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية . (٢٣٩/ ٦/ ١٩٨٧)

المحتويات :

١ ـ ثلوج كيليمانجارو ٧
٢ ـ هناك في ميتشيغان ٤٩
٣ ـ على رصيف سميرنا ٥٨
٤ ـ مخيم هندي ٦٢
٥ ـ الطبيب وزوجة الطبيب ٧١
٦ ـ نهاية شيء ما ٨٠
٧ ـ عاصفة لثلاثة أيام ٨٩
٨ ـ الملاكم ١١٤
٩ ـ قصة قصيرة جداً ١٣٣
١٠ ـ وطن جندي ١٣٧
١١ ـ الثوري ١٥٢
١٢ ـ السيد والسيدة أليوت ١٥٥
١٣ ـ قطة تحت المطر ١٦٢
١٤ ـ في غير أوانه ١٧٠
١٥ ـ ثلج عبر الريف ١٨٣

١٦ ـ أبي ١٩٥
١٧ ـ نهر كبير ذو قلبين (جزء ١) ٢١٩
١٨ ـ نهر كبير ذو قلبين (جزء ٢) ٢٣٤

ثلوج كليمانجارو

كليمانجارو جبل تغطيه الثلوج ويبلغ ارتفاعه ١٩٧١٠ قدماً (٦٠٠٨ متراً)، ويقال بأنه أعلى جبال أفريقيا قاطبة. وتدعى قمته الغربية: «ماساي نجاجي نجاي»: أي بيت الله. وعلى مقربة من القمة الغربية جثة فهد جافة ومتجمدة. لم يبين أي شخص ما الذي كان يبحث عنه الفهد على مثل ذلك الإرتفاع.

* * *

قال:

- المدهش في الأمر أنها لا تسبب ألماً. ذلك هو ما يجعلك تعرف متى تبدأ.
- أهي كذلك حقاً؟
- دون شك. أنا آسف جداً لهذه الرائحة. لا بد أنها تزعجك.
- لا. أرجوك، لا تقل هذا.

قال:

- انظري إليها. هل المنظر الذي يجلبها إلى هنا على هذا النحو أم الرائحة؟

كان السرير السفري، الذي تمدد عليه الرجل، تحت شجرة ميموزا وارفة الظلال وحين نظر من الظل إلى وهج السّهل الباهر كانت هناك ثلاثة طيور ضخمة تجثم بلا حشمة، بينما أبحرت في السماء دزينة أخرى، ملقية ظلالاً سريعة الحركة وهي تمر عنه.

قال:

- هي هناك منذ اليوم الذي تعطلت فيه الشاحنة. اليوم هو أول يوم تحط فيه أي منها على الأرض. راقبت الطريقة التي تبحر بها بتمعن أول الأمر، في حالة ما إذا أردت استعمالها في قصة. ذلك مسلٍ الآن.

قالت:

- أرجو أن تكفّ عن هذا.

قال:

- إنني أتكلم فقط. إن الكلام يخفف عني كثيراً. ولكنني لا أُريد أن أُزعجك.

قالت:

- أنت تعرف بأن هذا لا يزعجني. إن ما يزعجني هو الحالة العصبية التي وصلتُ إليها نتيجة لعجزي عن القيام بأي شيء. أعتقد بأننا يمكننا تخفيف المصيبة، قدر الإمكان، حتى تصل الطائرة.

- أو حتى لا تصل الطائرة.

- أرجوك أن تخبرني عما أستطيع فعله. لا بد أن هناك شيئاً ما أستطيع فعله.

- تستطيعين قطع ساقي فقد يوقف هذا الألم، مع أنني أشك بجدوى هذا، أو يمكنك إطلاق النار عليّ. أصبحتِ ماهرة بالرماية الآن. لقد علمتكِ الرماية، أليس كذلك؟

- أرجوك، لا تتحدث بهذه الطريقة. أأقرأ لك؟

- تقرئين ماذا؟

- أي شيء في حقيبة الكتب لم نقرأه بعد.

قال:

- لا أستطيع الإصغاء. الحديث هو أسهل الأمور. نحن نتخاصم وهذا يساعد على مرور الوقت بسرعة.

- أنا لا أتخاصم. لم أرد إثارة خصام أبداً. لنمتنع عن الخصام منذ اليوم. مهما كانت درجة العصبية التي نصل إليها. قد يعودون بشاحنة أُخرى اليوم. قد تصل الطائرة.

قال الرجل:

- لا أُريد أن أتحرك. لا معنى للتحرك الآن سوى أنه يسهّل الأمر بالنسبة إليك.

- هذا تصرف جبان.

- ألا يمكنك أن تدعي إنساناً يموت بالراحة التي يستطيعها دون أن تهينيه؟ ما فائدة مهاجمتي بألفاظ نابية؟

- لن تموت.

- لا تكوني سخيفة. إنني أموت الآن. اسألي أولاد الحرام هؤلاء.

رفع نظره إلى المكان الذي تجثم فيه الطيور الضخمة القذرة وقد غرقت رؤوسها العارية في الريش المحدودب . وانزلق طائر رابع هابطاً إلى الأسفل وركض سريعاً ثم سار متثاقلاً نحو الطيور الأخرى .

- إنها تحوم حول كل مخيم . إنك لا تلاحظها أبداً . لا يمكنك أن تموت إذا لم تستسلم .

- أين قرأتِ هذا؟ وأنتِ البلهاء الدموية .

- يمكنك التفكير بشخص آخر .

قال :

- بحق المسيح ، كانت تلك مهنتي .

ثم استلقى وأخلد إلى الهدوء برهة ونظر عبر وميض الحرارة المتصاعد من السهل إلى حافة الدغل . ظهر القليل من الغزلان التي بدت ضئيلة وبيضاء قبالة اللون الأصفر الذي يغمر السهل ، ورأى عن بعد سرباً من حُمر الوحش وقد بدت بيضاء اللون قبالة لون الشجيرات الخضراء . كان مخيماً مبهجاً ، تحت أشجار ضخمة عند سفح تل ، تجري من تحته المياه العذبة ، وعلى قرب شديد منه امتدت بركة شبه جافة تتطاير أسراب القطا الرملية حولها فى الصباح .

سألت :

- ألا تريدني أن أقرأ شيئاً؟

كانت تجلس على كرسي من نسيج القنّب إلى جانب سريره السفري . تابعت :

- ها هو نسيم يهب علينا .
- لا شكراً .
- قد تصل الشاحنة .
- لا تهمني الشاحنة من قريب أو بعيد .
- إنها تهمني .

أنت تهتمين بأشياء لعينة كثيرة لا تهمني أنا .

- ليست أشياء كثيرة إلى هذا الحد، يا هاري .
- ما رأيك؟
- من المفروض أنه يضرُّ بك . ورد في كتاب بلاك الطبي بأنه من الضروري تجنب تعاطي الكحول . يجب أن لا تشرب الكحول .

صاح :

- مولو .
- نعم يا بوانا .
- هات ويسكي بالصودا .
- نعم يا بوانا .

قالت :

- يجب أن لا تشرب . هذا ما عنيته بكلمة الإستسلام . يقول الكتاب بأن هذا يضرُّ بك . أنا أعرف بأن الشراب ضار بك .

قال :

- لا . إنه جيد بالنسبة إليّ .

فكر: هكذا انتهى كل شيء الآن . وهكذا لن تتاح له فرصة

لاتمامها أبداً. إذاً، فهذه هي الطريقة التي انتهت فيها حياته بمشاحنة حول شراب. ومنذ أن بدأت الغرغرينا تغزو رجله اليمنى، لم يحس بأي ألم ومع الألم تلاشى الرعب وكل ما يحس به الآن هو تعب وغضب بالغين من أن هذه هي نهاية حياته. ولهذا، والنهاية تحل الآن، لم يشعر سوى بقليل جداً من فضول. لمدة سنين طويلة، استحوذت عليه الحياة، ولكنها الآن لم تعد تعني له شيئاً بحد ذاتها. كم كانت غريبة قدرة شعوره بالتعب البالغ في تحويل هذه النهاية إلى هذه السهولة.

لن يكتب منذ الآن عن الأشياء التي أرجأ الكتابة عنها إلى حين يصبح على معرفة كافية بالكتابة عنها بطريقة جيدة. وعلى أي حال، فهو لن يخفق فى محاولة الكتابة عنها كذلك. لم تتمكن فى الكتابة عنها قط ولهذا أجلت وأخّرت البدء بها. حسناً، لن يعرف أبداً مدى صحة هذا الآن.

ـ قالت المرأة:

ـ ليتنا لم نحضر إلى هنا.

كانت تنظر إليه حاملة الكأس وعاضة على شفتيها.

ـ لم يكن سيقع لك شيء كهذا في باريس. قلت دائماً بأنك تحب باريس. كان يمكننا البقاء في باريس أو الذهاب إلى أي مكان آخر. كنت سأذهب إلى أي مكان. قلت بأنني سأذهب إلى أي مكان تريد الذهاب إليه. لو أردت الصيد لأمكننا الذهاب إلى المجر للصيد ولنعمنا بالراحة هناك.

قال :

- مالك الدموي .

قالت :

- هذا ظلـم . كان دائمـاً مالك قدر ما كان مالـي . تركتُ كل شيء وذهبت معك إلى كل مكان أردتَ الذهاب إليه وفعلـتُ ما أردتَ فعله . ولكن ، ليتنا لم نأتِ إلى هنا على الإطلاق .

- قلت بأنك أحببتِ هذه البلاد .

- أحببتُها حين كنتَ بخير . ولكنني أكرهها الآن . أنا لا أرى لمـاذا كان يجب أن يحدث ذلك لساقك . ما الذي اقترفناه ليحـدث لنـا هذا؟

- أعتقد بأن ما اقترفته هو أنني نسيت أن أضع عليها صبغة اليود حين خدشتها أول مرة . وبعدئذٍ لم ألتفت إليها لأنني لم أُصب بالتهاب قط . ومن ثم ، وبعد أن ساء الجرح ، فمن المحتمل أن استعمالي محلول الكاربوليك الخفيف ، بعد نفاذ المطهرات الأخرى ، شل الأوعية الدموية الدقيقة وبدأت الغرغرينا .

نظر إليها وتابع :

- ثم ماذا؟

- أنا لا أعني هذا .

- لو استأجرنا ميكانيكياً ماهراً بدلاً من سائق كيكويو نصف محروق ، لتحقق من الزيت ولما احترق كرسي التحميل في الشاحنة .

- لا أعني هذا.

- لو لم تفارقي ناسك، ناس أولد ويستبيري وساراتوجا وبالم بيتش الملعونين لتأخذيني . . .

- لم هذا، لقد أحببتك. هذا ظلم. أنا أُحبك الآن. وسأظل أُحبك دائماً. ألا تحبني؟

قال الرجل:

- لا. لا أظن هذا. لم أُحبكِ على الإطلاق.

- هاري: ماذا تقول؟ لقد فقدت عقلك.

- لا. ليس لدي عقل لأفقده.

قالت:

- لا تشرب هذا. حبيبي، أرجوك، لا تشرب هذا. ينبغي علينا أن نفعل كل ما نستطيع فعله.

قال:

- افعلي أنت ذلك، أنا تعب.

ورأى الآن في ذهنه محطة سكة الحديد في كاراجاتش وكان واقفاً ومعه أمتعته وكان نور قطار سيمبلون الشرق الأمامي يخترق الظلام الآن وكان مسافراً إلى تراقية بعد التراجع. تلك حادثة من الأحداث التي ادخرها ليكتب عنها، وفيما هو يتناول الفطور في الصباح وينظر من خلال النافذة ويرى الثلج يكسو الجبال في بلغاريا وسكرتيرة نانسين تسأل الرجل العجوز ما إذا كان ذلك ثلجاً والعجوز

ينظر إليه ويقول: لا، هذا ليس ثلجاً. لم يحن وقت الثلج. والسكرتيرة تكرر القول للفتيات الأخريات: لا، أترون. إنه ليس ثلجاً وكلهن يرددن القول، إنه ليس ثلجاً أخطأنا. ولكنه كان ثلجاً بالحقيقة وقد أرسلهن ليعبرنه حين وضع خطة تبادل السكان. وكان ثلجاً ذلك الذي دُسنَ عليه حتى فارقن الحياة في ذلك الشتاء.

وكذلك كان ثلجاً ذلك الذي هطل طيلة اسبوع عيد الميلاد في تلك السنة في جاويرتال، في تلك السنة، أقاموا في منزل أحد الحطّابين، وموقد الحطب الضخم المربع من الخزف الصيني يملأ نصف الغرفة، وناموا على فرشات حُشيت بأوراق أشجار الزان، في الوقت الذي وصل فيه الهارب من الجندية وقدماه داميتان في الثلج. قال: إن الشرطة تتعقب آثاره فأعطوه جوارب صوفية وأشغلوا الدرك بالحديث حتى زالت آثار قدميه.

في شرونز وفي يوم عيد الميلاد، كان الثلج متلألئاً جداً حتى أنه كان يؤذي عينيك وأنت تنظر من منظار واينز وترى الناس يعودون إلى بيوتهم من الكنيسة. كان ذلك حيث مشوا صاعدين الطريق الذي شقته زحّافات الجليد وحوّل البول لونه إلى اللون الأصفر وامتد على طول النهر مع تلال أشجار الصنوبر المنحدرة، وعدة التزلج ثقيلة على الكتف وحيث جَرَوْا ذلك الجري السريع إلى أسفل الجبل الجليدي فوق مادلينير ـ هاوس، ومنظر الثلج ناعم نعومة كعكة تتجمد وخفيف خفة مسحوق وتذكر الإندفاع الذي لا يثير أية ضجة والسرعة التي تنطلق بها وأنت تسقط هابطاً إلى الأسفل مثل طير.

حاصرهم الثلج اسبوعاً في مادلينير ـ هاوس في ذلك الوقت أثناء هبوب عاصفة ثلجية هوجاء وهم يلعبون الورق محاطين بالدخان على ضوء القنديل والمراهنات ترتفع أكثر فأكثر طيلة الوقت فيما كان هر لينت يخسر المزيد. وأخيراً خسر كل شيء. كل شيء: نقود مدرسة التزلُّج وكل ربح الموسم وبعدئذٍ رأسماله. إنه يستطيع رؤيته بأنفه الطويل، وهو يلتقط أوراق اللعب ثم يفتتح الرهان «دون أن يرى ما لديه من ورق». كانت هناك ألعاب قمار دائماً حينذاك. حين لم يكن الثلج يهطل كنتَ تقامر وحين كان الثلج يهطل غزيراً كنتَ تقامر. فكر بكل الأوقات في حياته التي قضاها وهو يقامر.

ولكنه لم يكتب سطراً عن هذا قط، ولا عن يوم عيد الميلاد البارد المشرق والجبال تظهر عبر السهل الذي طار فوقه باركر مجتازاً خطوط القتال ليقصف القطار الذي يحمل الضبّاط النمساويين الذاهبين لقضاء إجازاتهم وأطلق عليهم النار من مدفعه الرشاش فيما كانوا ينتشرون ويهربون. تذكر بعدئذٍ باركر يدخل قاعة الأكل ويبدأ بسرد ذلك. وكيف ران صمت على الجميع ثم قال أحدهم: «أنت ابن حرام مجرم دموي».

هؤلاء كانوا نفس النمساويين الذين قتلوهم حينذاك وتزلجوا معهم فيما بعد. لا، ليسوا هم. فهانس الذي تزلج معه طيلة تلك السنة، كان في قنّاصة القيصر وحين خرجا لصيد الأرانب معاً في أعلى الوادي الصغير فوق المنشرة الآلية تحدثا عن القتال على باسوبيو وعن الهجوم على بيرتيكا وأسالون ولم يكتب ولا كلمة

واحدة عن ذلك. ولا عن مونت كورنوولا عن سييت كومون ولا عن أرسييدو.

كم شتاء قضى في فور البيرج والـ «آر لبيرج»؟ كانت أربعه فصول شتاء ثم تذكر الرجل الذي كان يعرض الثعلب للبيع حين مشوا داخلين بلودينز، ليشتروا حينذاك هدايا وتذكّر مذاق نواة الكرز في شراب الكرز اللذيذ والإنزلاق الاندفاعي السريع لجريان الثلج الذروري على القشرة الخارجية الصلبة للثلج وهم يغنون: «هاي! هو! قال رولي»، بينما أنتَ تجري هابطاً الجزء الأخير من المنحدر قاطعاً إياه في خط مستقيم ثم متجاوزاً البستان جارياً في ثلاث دورات وخارجاً عبر الخندق إلى الطريق الثلجي خلف الخان. وبعد أن حللت أربطتك ونزعت زحافتيك برفسة عنيفة من رجليك، أسندتهما على جدار الخان الخشبي ونور المصباح يأتيك من النافذة، فيما كانوا يعزفون على الأكورديون في الخان في الدفء المُدَخِّن والعابق برائحة نبيذ جديد.

سأل المرأة التي كانت تجلس إلى جانبه على كرسي القنّب الآن في أفريقيا:

- أين أقمنا في باريس؟
- في كربون. أنت تعرف هذا.
- لم أعرف ذلك؟
- ذلك هو المكان الذي أقمنا فيه دائماً.
- لا ليس دائماً.

- هناك وفي بافيون هنري الرابع في سان جيرمان . قلت بأنك أحببت ذلك المكان .

قال هاري :

- الحب هو كومة زبل . وأنا الديك الذي يقف عليها لأصيح .

قالت :

- إذا كان عليك أن تمضي، فهل من الضروري قطعاً قتل كل شيء تخلفه وراءك؟ أقصد، هل يجب عليك أن تأخذ كل شيء، هل يجب عليك قتل حصانك، وزوجتك وحرق سرجك ودرعك؟

- نعم . نقودك اللعينة كانت درعي . سهمي ودرعي .

- لا تفعل هذا .

- حسناً . سأكف عن ذلك . لا أُريد إيذاءك .

- فات الأوان إلى حد ما .

- حسناً إذاً . سأواصل إيذاءك . إن هذا أكثر امتاعاً . والشيء الوحيد الذي أحببت فعله معك دائماً لا أستطيع فعله الآن .

- لا . هذا غير صحيح . أحببتَ فعل أشياء كثيرة وكل ما أردتَ فعله فعلتهُ أنا .

- أوه . بحق المسيح، كفي عن التبجح، أتسمحين؟

نظرَ إليها ورآها تبكي .

قال :

- اسمعي . أتظنين بأن فعل هذا ممتع؟ أنا لا أدري لماذا أفعل هذا .

إنه محاولة القتل لإبقاء نفسك على قيد الحياة، هذا ما أتخيله. كنت في حال حسن حين بدأنا الحديث. لم أقصد بدء هذا، وها أنا الآن مخبول كطائر الغر وقاسٍ عليك قدر استطاعتي. لا تلقي بالاً لما أقوله يا حبيبتي. أنا أُحبك حقاً. أنتِ تعرفين بأنني أُحبك. لم أُحب أية امرأة أخرى بالطريقة التي أحببتك بها.

انزلق إلى الكذبة المألوفة التى كان يكسب بها خبزه وزبدته.

- أنت رقيق معي.

قال:

- أيتها القحبة. أيتها القحبة الثرية. ذلك شعر. أنا ممتلىء بشعر الآن, عفونة وشعر. شعر عفن.

- كف عن هذا. هاري: لماذا يجب أن تتحول إلى شيطان؟

قال الرجل:

- لا أُحب أن أترك أي شيء ورائي. لا أُحب أن أخلّف أشياء ورائي.

* * *

كان الوقت مساء الآن وكان مستغرقاً في النوم. كانت الشمس قد اختفت خلف التل وغطى ظلٌ السهلَ كله وكانت الحيوانات الصغيرة تتغذى في مكان قريب من المخيم، رؤوس منحنية إلى الأسفل بسرعة وذيول مهتزة، راقبها وهي على بعد كبير من دغل الشجيرات. لم تعد الطيور تنتظر على الأرض. جثمت كلها بتثاقل على شجرة.

قدمت طيور أُخرى كثيرة لتنضم إليها. كان خادمه الغلام إلى جانب السرير.

قال الولد:

ـ ذهبت ممصاحب إلى الصيد. هل يريد بوانا شيئاً؟

ـ لا شيء.

ذهبت لقتل قطعة لحم ولأنها تعرف مدى حبه لمراقبة الطريدة، فإنها أوغلت فى الإبتعاد حتى لا تزعج هذا الجيب الصغير من السهل الذي يستطيع أن يراه. فكر: كانت دائماً تفكر بعمق. بأي شيء عرفته أو قرأته أو سمعت عنه في يوم من الأيام.

لم تكن الغلطة غلطتها إذا كان قد سبق وانتهى حين التقى بها. كيف يمكن لأمرأة أن تعرف بأنك لا تعني شيئاً مما قلته. وبأنك قلته انطلاقاً من العادة فقط ولتحس بالإرتياح؟ وبعد أن لم يعد يعني ما يقوله. كانت أكاذيبه أعظم نجاحاً مع النساء من نجاحِه معهن حين كان يقول لهن الحقيقة.

لم يكن ذلك لرغبة بالغة في نفسه ليكذب، بل كان ذلك لعدم وجود حقيقة ليذكرها. لقد عاش حياته وانتهت ثم واصل الحياة من جديد مع أشخاصٍ مختلفين وبمال أوفر، مستمتعاً بأفضل ما في تلك الأماكن، وفي بعض أماكن جديدة من أشياء.

لقد امتنعت عن التفكير فكان كل شيء رائعاً. لا بد أنك تتمتع بشجاعة نادرة حفظتك من التمزق إلى أشلاء بتلك الطريقة، الطريقة التي تمزق بها أغلبهم، واتخذت موقف من لا يهتم بالعمل الذي اعتدت أن تقوم به، نظراً لأنك لم تعد تستطيع القيام به. ولكنك

قلت، في نفسك، بأنك ستكتب عن هؤلاء الناس، عن البالغي الثراء، وبأنك لم تكن في الحقيقة تنتمي إليهم بل كنت جاسوساً في ديارهم، وبأنك ستترك ذلك الموضوع وتكتب عنه، فيكتب عنهم لأول مرة شخصٌ يعرف ما يكتبه. ولكنه لن يكتب أبد فكل يوم يقضيه دون كتابة، منعماً بالراحة، وعائشاً على نفس النحو الذي يحتقره، كان يبلِّد قدرته وأوهن إرادة العمل عنده حتى توقف أخيراً عن العمل توقفاً نهائياً. أحس الناس الذين يعرفهم الآن براحة أعظم حين لم يعد يكتب. كانت أفريقيا هي المكان الذي قضى فيها أسعد أيام حياته الطيبة، لذلك توجه إليها ليبدأ الكتابة من جديد. قاما برحلة الصيد هذه بأقل قدر ممكن من الراحة. لم تواجههما صعوبات ولكنهما لم ينعما بشيء من الرخاء ورأى بأنه كان يمكنه أن يعود إلى التدرب بتلك الطريقة على الكتابة. وبأنه كان يمكنه إزالة الشحم عن روحه بطريقة هي نفس الطريقة التي يذهب بها الملاكم إلى الجبال ليعمل ويتدرب حتى يحرق الشحم المتراكم في جسده.

أحبت الرحلة لقد قالت بأنها أحبتها. كانت تحب كل ما هو مثير وكل ما ينطوي على تغيير المنظر وحيث يوجد أُناس جدد وحيث تكون الأشياء بهيجة. وشعر بوهم استعادة الإرادة على العمل، والآن، وإذا كانت حياته انتهت على هذا النحو، وهو يعرف بأنها على هذا النحو انتهت ـ فإنه يجب أن لا يتحول إلى ذلك النوع من الأفاعي التي تلدغ نفسها لأن ظهرها كسر. لم تكن الغلطة غلطة هذه المرأة. لو لم تكن هي لكانت هناك امرأة أُخرى. إذا كان قد عاش على كذبة فإنه يجب أن يحاول الموت بها. سمع طلقة نارية خلف التل.

إنها تحسن الرماية، هذه القحبة الطيبة، هذه القحبة الثرية، هذه الحارسة الرحيمة والمحطمة لمواهبه. هراء! هو نفسه حطّم موهبته. لماذا يجب أن يلوم هذه المرأة، لأنها رعته على نحو جيد؟ لقد حطّم هو نفسُه موهبته لعدم استعمالها، بخياناته لنفسه ولما كان يؤمن به، باسرافه في الشراب إلى درجة أدت إلى تبلّد رهافة مداركه الحسية، بالكسل وبالإسترخاء وبالتعالي وبالكبرياء والغرور وبالحقد وبطريقة أو بأُخرى. ماذا كان هذا؟ كشف دفاتر قديمة؟ وماذا كانت موهبته على أي حال؟ لقد كانت موهبة فعلاً، ولكنه بدلاً من استعمالها، تاجر بها. لم تكن أبداً ما فعله، بل كانت دائماً ما كان يستطيع فعله. واختار أن يكسب رزقه عن طريق آخر بدلاً من كسبه عن طريق قلم رصاص أو حبر. من الغريب أيضاً بأنه كان يقع في حب امرأة أُخرى تكون أكثر ثراء من سابقتها، أليس ذلك ما وقع؟ ولكنه، وبعد أن لم يعد يحب، وحين صار يكذب فقط، كما يكذب الآن على هذه المرأة التي تملك من المال أكثر مما تملك النساء الأخريات اللواتي عرفهن، والتي تملك مال قارون، والتي كانت تعيش مع زوج وأطفال، والتي اتخذت لها عشاقاً لم يرضوها، والتي أحبته حباً كبيراً ككاتب وكرجل وكصاحب وكملكية يُعتز بها. فقد أصبح من الغريب بأنه حين لم يعد يحبها على الإطلاق وصار يكذب عليها، غدا قادراً على أن يقدم إليها مقابل مالها أكثر مما كان يقدم إليها حين كان يحبها بالفعل.

فكر: لا بد أننا نُجبل على الشكل الذي يناسب ما سنقوم به من عمل. ومهما تكن الطريقة التي تكسب بها رزقك فإنها تكون حيث

تكون موهبتك. لقد باع الحيوية، على صورة أو أخرى، طيلة حياته، وحين تربط عواطفك بالأمر أيضاً، فإنك تعطي المال أهميّة أكبر. اكتشف هذا غير أنه لن يكتب عن ذلك أبداً. لا، لن يكتب عن ذلك مع أنه جدير جداً بالكتابة عنه.

بدت الآن للأنظار، تمشي عبر الأرض الفضاء إلى المخيم. كانت ترتدي بنطال الفروسية (جود هبور) وتحمل بندقيتها القصيرة. وعلق الغلامان غزالاً على عصا وكانا يسيران خلفها. فكر: لا تزال امرأة جميلة المظهر، ولها جسد جذاب. كانت تتمتع بموهبة وتذوق عظيمين للفِراش، لم تكن باهرة الجمال، غير أنه أحب وجهها، وكانت تقرأ على نحو هائل، وتحب ركوب الخيل والرماية وتسرف بشرب الخمر دون شك. مات زوجها حين كانت لا تزال شابة نسبياً، ولوهلة من الزمن، كرّست نفسها لطفليها الإثنين اللذين بلغا سن البلوغ الآن ولم يعودا بحاجة إليها وأصبحا يشعران بالحرج من وجودها قربهما طيلة الوقت، كما كرست نفسها لاسطبل خيولها وللكتب وللقناني. إنها تحب القراءة في المساء قبل العشاء وتشرب الويسكي الاسكتلندية والصودا وهي تقرأ. وبحلول العشاء تكون قد سكرت قليلاً، وبعد زجاجة نبيذ عند العشاء تسكر عادة إلى درجة تسلمها إلى النوم.

كان ذلك قبل العشّاق. وبعد أن تعرفت على العشّاق لم تعد تسرف بالشراب إلى هذه الدرجة لأنها ما كان عليها أن تسكر حتى تنام. ولكن العشاق أضجروها لقد تزوجت من رجل لم يضجرها أبداً

غير أن هؤلاء الناس أضجروها ضجراً بالغاً.

ثم قتل أحد ولديها بحادث تحطم طائرة وبعد أن انتهى ذلك، لم تعد تريد عشاقاً، ولأن الخمرة لم تعد تخدِّر أحاسيسها، كان عليها أن تبحث عن حياة أُخرى. فقد تملكها فجأة رعب حاد من الوحدة. غير أنها أرادت العيش مع رجل تحترمه.

بدأت علاقتها به بمنتهى البساطة. كانت تحب ما كتبه وتحسده دائماً على الحياة التي كان يحياها. كانت تعتقد بأنه يفعل ما يريد فعله بالضبط. كانت الخطوات التي كسبته بها والطريقة التي أوقعتها أخيراً في حبه جزءاً من عملية منتظمة بنت لنفسها بها حياة جديدة وقدّم لها مقابلها ما بقي من حياته القديمة.

قدم ذلك لها مقابل الأمن والراحة أيضاً، لا مجال لانكار هذا، مقابل أي شيء آخر غير هذا إذاً؟ لم يكن يعرف. كانت ستشتري له أي شيء يريده. كان يعرف ذلك. كانت امرأة لطيفة لعينة أيضاً. وكان سيسارع للرقاد معها كما رقد مع أية امرأة أُخرى، لكنه يفضل الرقاد معها، لأنها أغنى، ولأنها كانت مبهجة ومتذوقة جداً ولأنها لم تثر أية مشاكل أبداً. وها هي هذه الحياة التي أقامتها تصل إلى نهايتها من جديد لأنه لم يستعمل صبغة اليود قبل اسبوعين مضيا حين خدشتْ شوكة ركبته وهما يندفعان إلى الأمام، محاولين تصوير قطيع من ضباء الماء الواقفة، وقد إشرأبت برؤوسها إلى الأعلى محدّقة، فيما كانت مناخيرها تستكشف الهواء، وآذانها تمتد على سعتها لسماع أول

ضجة كانت ستدفعها منطلقة إلى الدغل . لقد أطلقت سيقانها للريح قبل أن يلتقط الصورة .

ها هي قادمة الآن .

أدار رأسه وهو على السرير السفري لينظر إليها .

قال :

- مرحباً .

قالت :

- اصطدت غزالاً ذكراً . سيصنع لك حساء لذيذاً وسأطلب منهم هرس بعض البطاطا مع مسحوق حليب كليم . كيف حالك؟
- أفضل كثيراً .
- أليس ذلك رائعاً؟ أنت تعرف ، فكرت بأنك ستتحسن . كنت نائماً حين خرجت .
- نمت نوماً عميقاً . أذهبت بعيداً؟
- لا . درت حول التل فقط . لقد سدّدت على الغزال طلقة صائبة .
- إنكِ تجيدين الرماية على نحو مدهش ، أتعرفين هذا؟
- أُحب هذا . أحببت أفريقيا . لو كنت بخير لكانت هذه أمتع أيام حياتي . أنت لا تتصور مدى متعة الصيد معك . لقد أحببت هذه البلاد .
- أنا أُحبها أيضاً .
- أنت لا تدري يا حبيبي كم هو رائع أن أراك بصحة حسنة . لم أستطع تحمل رؤيتك على ذلك الحال . لن تتحدث إلي بتلك الطريقة ثانية ، أليس كذلك؟ عدني؟

قال :

- لا . لا أذكر ما قلته .

- يجب أن لا تحطمني ، أليس كذلك؟ لست إلا امرأة في منتصف العمر تحبك وتريد أن تفعل ما تريد فعله . سبق وتحطمت مرتين أو ثلاث مرات من قبل ، أنت لا تريد تحطيمي ثانية ، أليس كذلك؟

قال :

- بودي تحطيمك بضع مرات في الفراش .

- نعم . هذا هو التحطيم الرائع . تلك هي الطريقة التي جُبلنا عليها حتى نتحطم . ستصل الطائرة ألى هنا غداً .

- كيف تعرفين؟

- أنا متأكدة . لا بد أن تأتي . أعد الفتيان كل الحطب والعشب لإطلاق الدخان . هبطت إلى هناك لألقي نظرة عليها اليوم مرة أُخرى . هناك ما يكفي من مكان لهبوط طائرة وأعددنا الأدخنة عند كلا طرفيه .

- ما الذي يجعلك ترين بأنها ستصل غداً؟

- أنا واثقة من أنها ستصل . تأخرت عن موعد وصولها . وفي المدينة ، سيعالجون رجلك ثم سنمارس تحطيماً رائعاً ، وليس من ذلك النوع الرهيب من الكلام .

- نشرب كأساً ، الشمس غربت .

- أترى بأنك يجب أن تشرب؟

- سأشرب كأساً .

- سنشرب كأساً معاً .

ثم صاحت :

ـ مولو . هاتِ ويسكي ـ بالصودا .

قال لها :

ـ من الخير لك أن تنتعلي جزمتك الواقية من البعوض .

ـ سأنتظر حتى أستحم .

وفيما كان الظلام يخيم ، شربا ، وقبل أن يحل الظلام تماماً ولم يعد هناك من النور ما يكفي لإطلاق النار ، عبر ضبع الأرض الفضاء في طريقه إلى التل .

قال الرجل :

ـ يمر ابن الحرام هذا من هنا كل ليلة . كل ليلة منذ اسبوعين .

ـ إنه هو الذي يثير الضجة ليلاً . أنا لا أُبالي به . إنه حيوان قذر على أي حال .

وفيما كانا يشربان معاً ، وهو لا يشعر بأي ألم سوى بالضيق الناتج عن التمدد على وضع واحد والفتيان يشعلون ناراً تقافزت ظلالها على الخيام ، أحس بعودة الإستكانة إلى حياة الإستسلام الممتع هذه . كانت طيبة جداً معه . وكان قاسياً وظالماً بعد ظهر هذا اليوم . كانت امرأة طيبة ورائعة حقاً . وفي تلك اللحظة تماماً ، جالت بخاطره فكرة أنه سيموت .

جاءته هذه الفكرة باندفاع ، ليس كاندفاع ماء أو ريح ، بل كاندفاع فراغ فجائي كريه الرائحة ، والغريب بالأمر أن الضبع إنسل بخفة على حافتها .

سألته :

ـ ما بك يا هاري؟

قال :

ـ لا شيء . من الأفضل أن تنتقلي إلى الجانب الآخر. إلى اتجاه الريح .

ـ هل غيّر مولو الضمادات؟

ـ نعم . أنا أستعمل البوريك الآن .

ـ كيف تشعر؟

ـ بارتعاش طفيف .

قالت :

ـ أنا ذاهبة لاستحم . سأرجع حالاً . سأتناول الطعام معك ثم سندخل السرير إلى الخيمة .

قال لنفسه : لقد أحسنا صنعاً لكفنا عن الشجار . لم يتشاجر كثيراً مع هذه المرأة، في حين تشاجر مع النساء اللواتي أحبهن على نحو أدى إلى أنهن كن يقتلن أخيراً ودائماً وبمشاحنات الشجار، ما جمعه بهن . لقد بالغ بالحب، بالغ بالطلب واستنفذ كل هذا .

فكر في ذلك الوقت الذي كان فيه وحيداً في القسطنطينية، بعد أن تشاجر في باريس قبل مغادرتها . مارس الدعارة طيلة الوقت ثم فشل، بعد أن انتهى من ذلك، من قتل وحدته بل زادها سوءاً فكتب إليها، إلى المرأة الأولى، المرأة التي تركته، رسالة أعلمها فيها كيف أنه لم يستطع قتل هذه الوحدة . . . وكيف أنه أحس بالدوار والغثيان

حين ظن أنه رآها خارج الـ «ريجينس» ذات مرة وأخبرها بأنه تعقب امرأة تشبهها بطريقة ما على امتداد شارع عريض، وهو يخشى أن يكتشف بأنها ليست هي، ويخشى أن يفقد الإحساس الذي أثارته في نفسه. وكيف أن كل امرأة نام معها أثارت في نفسه الإحساس بافتقاده لها أكثر فأكثر فقط. وكيف أن ما فعلته ليس مهماً ما دام قد عرف بأنه لم يتمكن من أن يشفي نفسه من حبه لها. كتب هذه الرسالة في النادي، وهو صاحٍ تماماً، وأرسلها بالبريد إلى نيويورك طالباً منها أن تكتب إليه إلى عنوان المكتب في باريس. بدا هذا آمناً. وفي تلك الليلة افتقدها لدرجة جعلته يشعر بالخواء والغثيان في نفسه، فراح يهيم على وجهه مجتازاً ناصية تاكسيم، والتقط فتاة اصطحبها لتناول العشاء وذهب إلى مكان ليرقص معها، بعد ذلك، ورقصت رقصاً سيئاً فتركها ترقص مع بغي أرمنية ملتهبة، أخذت تؤرجح بطنها على جسمه حتى كادت تسلخ جلده. انتزعها من ملازم أول في المدفعية بريطاني الجنسية بعد نشوب عراك بينهما. دعاه المدفعي إلى الخروج وتعاركا في الشارع فوق حجارة الرصيف في الظلام. سدد إليه لكمتين على جانب فكّه، وحين لم يسقط المدفعي عرف بأنه سيواجه قتالاً عنيفاً. ضربه المدفعي في جسمه، ثم قرب عينه. وأدار يسراه مرة أُخرى وأصابه فهجم المدفعي عليه وأمسك بمعطفه ومزّق كمه وانتزعه ولكمه مرتين خلف أُذنه ثم سحقه بيمناه وهو يدفعه بعيداً. حين سقط المدفعي ارتطم رأسه بالأرض أولاً وهرب مع الفتاة لأنهما سمعا الشرطة العسكرية قادمة. استقلا سيارة أُجرة إلى ريميلي هيسا على امتداد البوسفور، وحوله، ثم عادا إلى الليل البارد وأويا إلى الفراش وأحس بها مفرطة النضج كما بدت

له أول الأمر ولكنها كانت ناعمة، وردية اللون، ولها مذاق عصير الفواكه، وملساء البطن وضخمة النهدين لا تحتاج إلى وضع وسائد تحت ردفيها، وقد تركها قبل أن تفيق من نومها وتظهر متهدلة الجسم متغضنة الوجه تحت أول اشعاعات شمس الصباح واتجه إلى بيرا بالاس واحدى عينيه مسودة، حاملاً معطفه لأن أحد كميَّه كان منزوعاً.

وفي تلك الليلة نفسها غادر إلى الأناضول وتذكر، فيما بعد، تلك الرحلة التي أمضاها راكباً حصاناً طيلة النهار بين حقول أشجار الخشخاش التي زرعوها لإنتاج الأفيون ومدى الغرابة التي أثارتها في نفسك أخيراً وكيف بدت كل المسافات خاطئة في تلك الرحلة إلى الأماكن التي شنوا منها الهجوم مع ضباط القسطنطينية الذين وصلوا منذ فترة قصيرة، والذين لم يكونوا يعرفون شيئاً والمدفعية تطلق النار على الجند وكيف بكى المراقب البريطاني كطفل صغير.

ذلك كان اليوم الذي رأى فيه لأول مرة جثث موتى يرتدون تنانير بالية بيضاء وينتعلون أحذية معقوفة إلى الأعلى مزينة بريش زينة. كان الأتراك قد تقدموا بعزم وثبات ومتراصين ورأى الرجال المرتدين التنانير يولون الأدبار والضباط يطلقون عليهم النار ثم يولي الضباط أنفسهم الأدبار وأطلق هو والمراقب البريطاني سيقانهما للريح حتى أحس بألم في رئتيه وامتلأ فمه بطعم بنسات ووقفا خلف بعض الصخور ورأيا الأتراك يتقدمون مكونين كتلة متراصة كما في السابق. وفيما بعد ذلك رأى أشياء لم يستطع التفكير بها، كما رأى بعد ذلك ما هو أسوأ من هذا بكثير. وهكذا، وحين عاد إلى باريس

في تلك المرة، لم يستطع التحدث عنها ولا تحمّل ذكرها أمامه. وفي ذلك المقهى وأثناء مروره به، كان ذلك الشاعر الأمريكي وأمامه كومة من أطباق كؤوس خمر ونظرة بلهاء ترتسم على وجهه البطاطي وهو يتحدث عن حركة دادا مع رجل روماني ذكر بأن اسمه هو ترستان تزارا، يضع دائماً على عين واحدة عدسة نظّارة أحادية (مونوكل) ويشكو من صداع، وبعد أن عاد إلى الشقة مع زوجته التي أحبها من جديد وقد انتهى العراك وانتهى الجنون وغمره سرور لعودته إلى البيت، أرسل إليه المكتب بريده إلى الشقة. وهكذا، وصلته هناك وعلى طبق في صباح أحد الأيام رسالة جوابية على رسالة كان قد كتبها، وحين رأى الخط سرت في جميع أوصاله قشعريرة وحاول أن يدسها خفية تحت رسالة أخرى. ولكن زوجته قالت: «ممن تلك الرسالة يا عزيزي؟» وكانت هذه نهاية بداية الأمر.

تذكر الأيام الطيبة التي قضاها معهن كلهن والخصومات التي نشبت بينه وبينهن. كن يخترن دائماً أجمل الأماكن ليثرن الخصام فيها. ولماذا كن يثرن العراك حين يكون في أصفى حالاته؟ لم يكتب عن أي من هذه المواضيع لأنه لم يكن يريد أن يؤذي أحداً في بداية الأمر، وبعدئذ، بدا بأن هناك ما يكفي من مواضيع للكتابة عنها غير تلك. ولكنه كان يفكر دائماً بأنه سيكتب عنها أخيراً. هناك الكثير جداً من المواضيع التي يمكنه الكتابة عنها. رأى العالم يتغير، وليس الأحداث فقط، ومع أنه رأى الكثير منها وراقب الكثير من الناس، لكنه رأى التغيير الأدهى. استطاع أن يتذكر كيف كان الناس في أوقات مختلفة. لقد انغمس في العالم وشاهده وكان من واجبه

الكتابة عنه، ولكنه لن يكتب عنه أبداً الآن.

قالت:

- كيف حالك؟

كانت قد خرجت من الخيمة بعد حمامها.

- حسن.

- أيمكنك أن تأكل الآن؟

رأى مولو خلفها وهو يحمل الطاولة التي تطوى والولد الآخر يحمل الأطباق.

قال:

- أُريد أن أكتب.

- يجب أن تتناول بعض الحساء حتى تستعيد قوتك.

- سأموت الليلة. لا أحتاج إلى استعادة قوتي.

قالت:

- لا تكن ميلودرامياً يا هاري. أرجوك.

- لم لا تستعملين أنفك؟ لقد تعفن نصفي من فوق الفخذ إلى الأعلى الآن. ماذا سيفيدني العبث بحساء بحق الجحيم؟ مولو، أحضر ويسكي بالصودا.

قالت برقة:

- أرجوك. خذ الحساء.

- حسناً.

كان الحساء ساخناً جداً. كان يجب أن يبقيه في الطبق حتى يبرد فيتناوله، ثم يزدرده دفعة واحدة دون أن يتقيأه.

قال:

- أنت امرأة رائعة. لا تلقي بالاً إليّ.

نظرت إليه بوجهها المشهور والمحبوب شعبياً من خلال صفحات جريدتي المهماز (سبير) والمدينة والريف (تاون أند كونتري)، بعد أن أصبحت أسوأ قليلاً فقط بسبب الشراب، وأسوأ قليلاً فقط بسبب الفراش، ولكن «المهماز» و «البلدة والريف» لم تكشفا عن ذينك النهدين الرائعين والفخذين النافعين وهاتين اليدين صغيرتي القفا قليلاً والمداعبتين، وحين نظر إليها ورأى ابتسامتها البهيجة الشهيرة، شعر بالموت يقبل من جديد. لم يكن هناك اندفاع هذه المرة. كان هبّة كهبة ريح تجعل شمعة تخفق وتطيل لهبها.

- يمكنكم إخراج ناموسيتي فيما بعد وتعليقها من الشجرة وإضرام النار. لن أدخل الخيمة في هذه الليلة. لا يستحق الأمر التنقل. إنها ليلة صافية. لن يهطل مطر.

هذه إذاً هي الطريقة التي مِتَّ بها، بهمسات لم تسمعها. حسناً، لن ينشب مزيد من الخصام. يستطيع قطع وعد بذلك. فهو الآن لن يفسد التجربة الوحيدة التي لم يعشها. ربما سيفيدها ذلك. لقد أفسدتَ كل شيء. ولكنه قد لا يفسدها.

- لا تستطيعين كتابة الإملاء، أتستطيعين؟

قالت له :

- لم أتعلم ذلك قط.

- حسناً.

من الطبيعي أنه ليس هناك متسع من الوقت، مع أنها تبدو كما لو نظر إليها من خلال منظار فلكي مقرّب حتى أنه يمكنك وضعها كلها في فقرة واحدة إذا استطعت فهمها تماماً.

كان هناك منزل خشبي مشقق ومبيّض بالكلس على تل يشرف على البحيرة. وكان على عمود قرب الباب جرس لدعوة الناس إلى الدخول لتناول وجبات الطعام. وخلف المنزل، امتدت حقول وخلف الحقول امتدت الغابة. وامتد صف من أشجار حور لومباردیا من المنزل إلى رصيف البحيرة. وامتدت أشجار حور أُخرى حتى لسان البر. وجرى طريق صاعداً التلال على طول حافة الغابة وعلى طول ذلك الطريق قطوف ثمار العلّيق. وبعد ذاك إحترق ذلك المنزل الخشبي تماماً واحترقت كل البنادق التي كانت على رفوف من أقدام الغزلان المثبتة فوق الموقد الكبير. وبعدئذٍ احترقت مواسيرها، وذاب الرصاص في مخازنها، واحترقت مقابضها تماماً، وتراكم كل هذا على كوم من رماد استعمل لصنع مادة القلى بغلايات الصابون الحديدية الضخمة، وسألتَ جدك إن كان يمكنك أخذها لتلعب بها، وقال لك: لا. أنت تعرف بأنها لا تزال بنادق، وهو لم يشترِ غيرها قط. كما لم يعاود الصيد. وأُعيد بناء المنزل الآن في نفس المكان، من خشب الغابات وطلي بدهان أبيض، ومن شرفة مدخله كنت ترى أشجار الحور والبحيرة المنبسطة خلفه، غير أنه لم يعد هناك بنادق.

وطُرحت مواسير البنادق التي كانت معلقة على أقدام الغزلان المثبتة على جدران المنزل الخشبي على كومة رماد ولم يمسها أحد قط.

وفي الغابة السوداء، وبعد الحرب، استأجرنا جدولاً لصيد سمك التروتة، وكان هناك طريقان للوصول إليه. أحدهما ينحدر أسفل الوادي من تريبيرج ويدور حول الوادي في ظل الأشجار المتاخمة للطريق الأبيض، ثم يصعد في طريق جانبي صاعداً خلال التلال، بمحاذاة مزارع صغيرة كثيرة، ومنازل شفارزفالد الكبيرة إلى أن يعبر ذلك الطريق الجدول. ومن هناك بدأ صيدنا. وكان الطريق الثاني يتسلق بانحدار صاعداً حافة الغابة ثم يعبر قمم التلال بين أشجار الصنوبر ثم يخرج بعدئذٍ إلى حافة مرج يهبط عبر هذا المرج إلى الجسر. وكانت هناك، أشجار البتولا على طول الجدول ولم يكن كبيراً بل ضيقاً، غير أنه كان صافياً وسريع الجريان، يمر ببرك حفرها تحت جذور أشجار البتولا. وفي الفندق في تريبيرج، حقق صاحبه موسماً ناجحاً. كان الفندق بهيجاً جداً وأصبحنا جميعاً أصدقاء حميمين. وفي السنة التالية، حل التضخم وأصبح المال الذي كسبه في السنة الماضية غير كافٍ لشراء التموينات لفتح الفندق فشنق الرجل نفسه.

تستطيع إملاء ذلك، لكنك لا تستطيع إملاء ساحة كونترسكارب حيث كان باعة الزهور يصبغون زهورهم في الشارع فيسيل الصباغ على الرصيف الذي تنطلق منه الحافلة وحيث الرجال والنساء والعجائز دائماً سكارى من النبيذ ومن شراب مارك السيء، وحيث الأطفال بأنوفهم الجارية من البرد، ورائحة العرق القذر والفقر

والسكر في مقهى الهواة (Café des Amateurs) والعاهرات في بال موزيت الذي يسكن فوقه. والبوَّابة التي استقبلت أحد رجال الحرس الجمهوري في كوخها، وقد وضع خوذته المزيّنة بشعر الفرس على كرسي. والمرأة المقيمة في غرفة في الجانب الآخر في القاعة وزوجها الممتهن لسباق الدراجات وفرحها في ذلك الصباح في محل الألبان حين فتحت مجلة «لاوتو» لتجد فيها بأن زوجها حاز على المرتبة الثالثة في سباق باريس ـ تور، أول سباق كبير له. احمر وجهها وضحكت وارتقت الدرج إلى الطابق العلوي باكية وجريدة الرياضة الصفراء في يدها. ويقود زوج المرأة التي تدير «بال موزيت» سيارة أُجرة وحين اضطر هو، هاري، إلى أخذ طائرة في ساعة مبكرة، قرع الزوج على باب غرفته ليوقظه وشرب كل منهما كأس نبيذ أبيض على سطح مصطبة المشرب الزنكية قبل أن يتجها إلى الطائرة. عرف كل جيرانه في ذلك الحي حينذاك لأنهم كانوا كلهم فقراء.

وحول تلك الساحة كان هناك نوعان، السكارى والرياضيون كان السكارى يقتلون فقرهم بتلك الطريقة، ويخرجه الرياضيون من بيوتهم بالتمرين. كانوا أحفاد ثوار كومونة باريس ولم يكن عليهم النضال ليعرفوا خطهم السياسي. كانوا يعرفون من قتل آباءهم، وأقرباءهم، وإخوانهم، وأصدقاءهم حين دخلت قوات فرساي واحتلوا المدينة بعد الكومونة وأعدموا كل من استطاعوا الإمساك بهم من أشخاص بأيدٍ خشنة، أو الذين يعتمرون طاقيات، أو من يحمل أية إشارة تدل على أنه عامل. وفي ذلك الفقر، وفي ذلك الحي عبر

الشارع الممتد من محل بيع لحوم الخيل وتعاونية بيع الخمر كتب بداية كل ما كان عليه كتابته. لم يكن هناك أي جزء من باريس أحبه كما أحب ذلك الجزء، بأشجاره الممتدة الأغصان، والبيوت العتيقة البيضاء القصارة التي طُليت أجزاؤها السفلية باللون البني ولون الحافلة الخضراء الطويلة في تلك الساحة المستديرة وصبغة الأزهار الأرجوانية على الرصيف، والإنحدار الحاد المفاجيء إلى أسفل تل طريق كاردينال ليموان الممتد إلى النهر، والطريق الآخر إلى عالم شارع موفيتارد الضيق المزدحم. والشارع الصاعد نحو الباثييون والشارع الأخر الذي كان يسلكه دائماً بدراجته، الشارع الوحيد المعبّد بالإسفلت في كامل هذا الحي، والأملس تحت العجلات ببيوته العالية الضيقة والفندق العالي الرخيص الذي مات فيه الشاعر بول فيرلين. كانت هناك غرفتان فقط في الشقق التي يقيمون فيها، وأقام هو في غرفة في الطابق العلوي من ذلك الفندق كلفته ستين فرنكاً شهرياً حيث كان يقوم بكتاباته، ومنها كان يستطيع رؤية أسطح البيوت وقمة المداخن وكل تلال باريس.

ومن الشقة كنتَ تستطيع رؤية محل بيع الحطب والفحم فقط. حيث كان يبيع النبيذ أيضاً، النبيذ الرديء. ورأس الحصان الذهبي من خارج مجزرة الخيل حيث تتدلى جثث الخيل الذبيحة الصفراء الذهبية والحمراء في النافذة المفتوحة، والتعاونية المطلية باللون الأخضر والتي كانوا يشترون منها نبيذهم، نبيذاً جيداً ورخيصاً. وكان باقي ما يراه جدران مقصورة ونوافذ الجيران. الجيران الذين يفتحون نوافذهم ليلاً حين ينطرح سكران أرضاً وهو يئن وينوح بتلك

الطريقة الفرنسية النمطية التي أقنعتك الدعاية بألا تصدق وجودها، ثم يتمتمون قائلين:

- أين الشرطيّ؟ حين لا تريده، ذلك اللوطي، فهو دائماً أمامك إنه ينام مع إحدى حارسات المباني. نادوا الشرطي السري.

حتى يدلق شخص دلو ماء من إحدى النوافذ ويوقف الأنين.

- ما هذا؟ ماء. آه. ذلك عمل ذكي.

وتغلق النوافذ. وتحتج ماري، مديرة منزله، على يوم عمل من ثماني ساعات فقط، قائلة بأنه إذا اشتغل زوج حتى الساعة السادسة فإنه لن يشرب سوى القليل من الخمر في طريق عودته إلى البيت ولن ينفق الكثير. وإذا اشتغل حتى الخامسة فقط فإنه سيسكر كل ليلة ولن يبقى معه فلس واحد. إن زوجة العامل هي التي تعاني من تخفيض ساعات العمل.

سألته المرأة:

- ألا تريد المزيد من الحساء؟
- لا. شكراً جزيلاً. إنه لذيذ جداً.
- جرب القليل منه.
- أود شرب ويسكي بالصودا.
- ليس مفيداً لك.
- لا. إنه سيء لي. كتب كول بورتر الكلمات ووضع الموسيقى. هذا دليل على أنك ستُجنين من أجلي.
- أنت تعرف بأنني أُحبّ أن تشرب.

ـ آه، نعم. إلا أن الشراب سيء بالنسبة لي.

فكر: حين تذهب، سَأتناول كل ما أُريده. ليس كل ما أُريد بل كل ما هو متوفر. آخ، لقد كان تعباً. تعباً جداً. سينام لبرهة وجيزة. استلقى ساكناً ولم يكن الموت هناك. لا بد أنه ذهب متجولاً في شارع آخر. انطلق اثنين اثنين، على دراجات، وتنقل بصمت مطبق على الأرصفة.

لا. لم يكتب أبداً عن باريس. ليس عن باريس التي اهتم بها. ولكن ماذا عن باقي ما لم يكتب عنه؟

ماذا عن المزرعة واللون الرمادي الفضي لأجمة المريمية والماء الصافي السريع الجريان في قنوات الري، وخضرة البرسيم العميقة والممر الصاعد إلى التلال وقطعان الماشية في الصيف خجولة كالغزلان. والخوار والضجة المتواصلة والكتلة المتحركة البطيئة مثيرة الغبار وأنت تهبط بها إلى الأسفل في الخريف. وخلف الجبال، أطراف القمة الحادة، في نور المساء، ساطعة عبر الوادي وأنت على صهوة جواد هابطاً على طول الممر الوعر في ضوء القمر. ويذكر الآن هبوطه عبر الغابة في الظلام الدامس ممسكاً بذيل الحصان حين لم تكن تستطيع أن ترى وكل القصص التي اعتزم كتابتها.

وعنّ عامل المزرعة نصف المعتوه الذي تُرك في المزرعة وحده حينذاك وطلب منه أن لا يسمح لأي شخص من أخذ أي قش، وذلك العجوز ابن الحرام من فوركس. الذي كان يضرب الولد حين كان يعمل عنده يتوقف هناك لأخذ بعض القش. والولد يرفض والرجل

العجوز يهدده قائلاً بأنه سيضربه ثانية. وجاء الفتى بالبندقية من المطبخ وأطلق النار عليه حين حاول دخول الحظيرة وحين رجعوا إلى المزرعة كان العجوز ميتاً منذ اسبوع ووجدوه متجمداً في حظيرة المواشي، والكلاب قد أكلت جزءاً منه. ولكنك لففت ما بقي منه ببطانية ووضعته على زلاجة وربطته بحبل عليها وأخذت الولد ليساعدك على نقله، وأخرجتماه أنتما الإثنان إلى الطريق على زلاجة وقطعت ستين ميلاً إلى البلدة لتسليم الفتى. لم تكن تراوده أية فكرة بأنه سيعتقل. كان يظن بأنه قد أدى واجبه وبأنك كنت صديقه وسيمنح مكافأة. ساعد على نقل الرجل العجوز إلى المدينة حتى يتمكن الكل من أن يعرفوا إلى أي حد كان العجوز شريراً وكيف حاول سرقة بعض القش الذي لا تعود ملكيته إليه، وحين أحاط محافظ المنطقة (الشريف) يدي الولد بالأغلال لم يصدق الولد هذا. ثم بدأ يبكي. هذه قصة ادخرها لكي يكتبها. إنه يعرف عشرين قصة جيدة على الأقل حدثت في تلك المنطقة ولم يكتب أياً منها حتى الآن. لماذا؟

قال:

- قولي لهم لماذا.

- لماذا ماذا يا عزيزي؟

- لماذا لا شيء.

لم تعد تسرف بالشراب الآن منذ أن ملكته. لكنه إذا بقي على قيد الحياة فإنه لن يكتب عنها شيئاً أبداً، إنه يعرف هذا الآن. ولا عن أي

منهم. الأغنياء بليدون ويسرفون بالشراب ويكثرون من لعب طاولة الزهـر. كانا بليدين ومتشـابهين. تذكر جوليان المسـكين وفزعه الرومانسي منهم وكيف أنه شرع في كتابة قصـة مرة تبـدأ: «البالغـو الثراء يختلفون عنـك وعنـي». ورد أحدهـم علـى جوليان، نعـم، فلديهم مال أكثر. ولم يكن هذا الرد فكهاً بالنسبة إلى جوليان. فقد رأى بأنهم عنصر خاص متوهج، وحين اكتشف بأنهم ليسوا كذلك، حطمه هذا قدر ما حطمه أي شيء آخر.

كان يُكنُّ احتقاراً لأولئك الذين يتحطمون. لم يكن يجب عليك أن تحب ذلك لأنك فهمته. فكر: يمكنه أن يهزم أي شيء، لأنّ لا شيء يمكنه إيذاءه إذا لم يبال.

حسناً، لن يبالي بالموت الآن. شيء واحد فقط كان يرعبه دائماً وهو الألم. يستطيع تحمل الألم قدر تحمل أي إنسان آخر له، إلا أنه استمر لمدة طويلة، وأوهن قواه، ولكنه يواجه الآن شيئاً آذاه إيذاءً مروعاً وحين أحس تماماً بأنه يقصم ظهره، توقف الألم.

تـذكر، في الماضـي البعيد، حين أصيب وليامسـون ضابـط المدفعية، بقنبلة عضوية قذف بها عليه أحد أفراد دورية المانية حين كان يتسلل عبر الأسلاك في تلك الليلة فصاح ورجا كل شخص بأن يقتله. كان رجلاً بديناً، وبالغ الشجاعة، وضابطاً رائعاً، بالرغم من إدمانه على الإستعراضات الخيالية. ولكنه وقـع في تلك الليلـة بين الأسلاك ونور وهّاج يُنيره وأحشاؤه مندلقة على الأسلاك، فكان يجب عليهم أن يقطعوا أحشاءه ليحرروه من الأسلاك، لذلك كان على قيد

الحياة حين نقلوه إلى المعسكر. صاح: أطلق علي النار يا هاري من أجل المسيح أطلق علي النار. كانوا قد تجادلوا، ذات يوم، حول فكرة أن الله لن يحمّلك أي شيء لا تستطيع احتماله وكانت نظرية أحد الأشخاص تقول بأن وطأة الألم تخف عنك في وقت معين تلقائياً. غير أنه تذكر، دائماً، وليامسون في تلك الليلة. ولم تخفّ وطأة الألم عن وليامسون حتى أعطاه جميع أقراص المورفين التي كان يحتفظ بها دائماً ليستعملها هو نفسه، ولم تفعل فعلها فوراً حينذاك.

ولا يزال هذا الذي يعاني منه الآن هين جداً، وإذا لم يزد سوءاً وهو لا يزال مستمراً فلن يكون هناك داعٍ للقلق. سوى أنه يفضل أن يكون في صحبة أفضل.

فكر قليلاً بالصحبة التي يتمناها.

فكر: لا، حين تقوم بأي شيء، وتقوم به لفترة أطول من اللازم، وتقوم به في وقت متأخر أكثر من اللازم، فلا يمكن أن تتوقع أن تجد بأن الناس ما زالوا هناك. فكل الناس يذهبون. الحفلة تنتهي وأنت باقٍ مع مضيفتك.

فكر: إنني أُحس بالملل من الإحتضار كمللي من أي شيء آخر.

قال بصوتٍ عال:

- إنه ممل.
- ما هو يا عزيزي؟
- أي شيء تفعله لمدة دموية طويلة جداً.

نظر إلى وجهها المنتصب بينه وبين النار. كانت تميل في الكرسي إلى الخلف ونور النار يتألق على وجهها البهيج القسمات ورأى بأنها نعسانة. وسمع الضبع يحدث ضجة خارج مدى النار تماماً.

قال:

- كنت أكتب. ولكنني تعبت.
- أتظن بأنك ستكون قادراً على النوم؟
- متأكد تماماً. لم لا تدخلين؟
- أُحب أن أجلس هنا معك.

سألها:

- أتحسين بأي شيء غريب؟
- لا، نعسة قليلاً فقط.

قال:

- أنا أُحس بشيء غريب.

في تلك اللحظة تماماً، أُحس بالموت يقترب منه مرة أُخرى.

قال لها:

- أتعرفين بأن الشيء الوحيد الذي لم أفقده قط هو الفضول.
- أنت لم تفقد شيئاً. أنت أكمل رجل رأيته طيلة حياتي.

قال:

- يا للمسيح. ما أقلَ ما تعرفه المرأة! ما ذلك؟ حدسك؟

لأن الموت اقترَب في تلك اللحظة تماماً وأراح رأسه على أسفل السرير السفري وكان باستطاعته أن يشم نَفَسه .

قال لها :

- لا تصدقي أبداً أي شيء عن منجل وجمجمة . قد يكون بنفس البساطة شرطيين على دراجتين ، أو قد يكون طائراً . أو قد يكون له فنطيسة كبيرة كضبع .

تحرك صاعداً عليه الآن ، لكنه لم يعد له شكل . إنه ببساطة يشغل فراغاً .

- أُطلبي منه أن يبتعد .

لم يبتعد بل ازداد اقتراباً إلى مسافة قصيرة .

قال له :

- لكَ نَفَسٌ جهنمي . أنت ابن حرام نتن .

لا زال يتحرك مقترباًمنه ولم يستطع الآن من التحدث إليه ، وحين رأى الموت بأنه لا يستطيع التحدث إليه ازداد اقتراباً قليلاً ، فحاول الآن إبعاده عنه دون كلام ، غير أنه دخل وتحرك عليه حتى حط كل ثقله فوق صدره ، وفيما كان يجثم هناك ولم يعد هاري يستطيع التحرك أو الكلام ، سمع المرأة تقول : «بوانا نائم الآن . إرفعا السرير برفق شديد وانقلاه إلى داخل الخيمة» .

لم يستطع الكلام ليطلب منها إجباره(*) على الإبتعاد عنه ، وجثم

(*) الاشارة هنا إلى الموت . (المترجم) .

الآن عليه، أثقل من السابق، حتى أنه لم يستطع التنفس. وحينذاك، وفيما هما يرفعان السرير السفري، تحسنت حالته فجأة وانزاح الثقل عن صدره.

* * *

كان الوقت صباحاً، وكان الصباح قد حل منذ فترة من الزمن وسمع هدير الطائرة. بدت ضئيلة جداً ثم رسمت دائرة واسعة فخرج الولدان وأشعلا النيران، مستعملين الكيروسين، وكوّما عليها الأعشاب حتى تكونت بقعتان كبيرتان من النار على كل من طرفي الأرض المستوية ودفع بهما نسيم الصباح نحو المخيم ودارت الطائرة، مرتين أخريين، على ارتفاع منخفض هذه المرة، وانزلقت هابطة واستوت وحطت على الأرض بسلاسة، وكان من أقبل نحوه هو كومبتون العجوز مرتدياً سروالاً فضفاضاً، وسترة من قماش التويد ومعتمراً قبعة لباد بنية.

قال كومبتون:

- ما الأمر أيها الديك العجوز؟

قال له:

- رجل سيئة. هلا تناولت طعام الإفطار؟

- شكراً. سأتناول بعض الشاي فقط. إن الطائرة من نوع بوس موث، كما تعرف، لن أستطيع أخذ الممصاحب. ليس هناك متسع إلا لشخص واحد فقط. إن شاحنتكم في الطريق.

انتحت هيلين بكومبتون جانباً وأخذت تكلمه. عاد كومبتون أكثر ابتهاجاً من السابق.

قال :

ـ سننقلك في الحال إلى داخل الطائرة . سأعود لنقل الممصاحب . أخشى الآن أن أتوقف في أروشا للتزود بالوقود . من الأفضل أن نذهب .

ـ ماذا عن الشاي؟

ـ لا أهتم به حقاً، كما تعرف .

رفع الولدان السرير السفري وحملاه دائرين حول الخيام الخضر وهبطوا على امتداد الصخور حتى وصلا إلى السّهل وسارا على امتداده مجتازين بقعتي النار اللتين كانتا تتقدان الآن باضطرام استهلك العشب كله، ودفعت الريح النار إلى الطائرة، الطائرة الصغيرة . كان من الصعب إدخاله إلى الطائرة، غير أنه ما أن أُدخل إليها حتى تمدد على المقعد الجلدي وامتدت الساق إلى أحد جانبي المقعد حيث يجلس كومبتو. أدار كومبتون المحرك ودخل الطائرة. ولوّح بيده إلى هيلين والولدين وحين تحولت القرقعة إلى صوت الهدير المألوف، دارت وكومبي (كومبتون) يتحاشي حُفَر مكامن الخنازير البرية وهدرت الطائرة وارتجّت على امتداد الأرض الواقعة بين بقعتي النيران لترتفع مع الإرتجاجة الأخيرة ورآهم هو واقفين في الأسفل، ملوِّحين بأيديهم والمخيم ينتصب إلى جانب التل منبسطاً الآن، والسهل ينتشر، كتلاً من أشجار، والشجيرات تنبسط، بينما خط سير الطرائد يجري الآن بسلاسة نحو برَكِ الماء الجافة، وكان هناك ماء جديد لم يعرف عنه من قبل . وحُمرُ الوحش، ظهوراً صغيرة مستديرة الآن، والبقر الوحشي (نو)، بقعاً

كبيرة الرؤوس تبدو بأنها تتسلق وهي تتحرك كأصابع طويلة عبر السهل، تتفرق الآن حين اقترب الظل نحوها، كانت ضئيلة الحجم الآن ولم تكن الحركة هرولة، والسهل حتى أقصى ما تستطيع رؤيته، رمادياً أصفر الآن، وأمامه، رأى ظهر سترة كومبي التويد وقبعته اللبادية البنية. ثم صارا فوق أول التلال وبقر الوحش (نو) تندفع صاعدة التلال، وبعدئذٍ حَلّقا فوق جبال بأعماق فجائية لغابة خضراء صاعدة ومنحدرات الخيزران الصلدة، ثم الغابة الكثيفة مرة ثانية، نُحتت لتكوّن قمماً وأغواراً حتى عبراها، والتلال انحدرت إلى الأسفل ومن ثم سهل آخر، حاراً الآن، وأرجوانياً بنياً، مهتزاً بالحرارة وكومبي يلتفت إلى الخلف ليرى كيف كان ركوبه. وكانت هناك جبال قاتمة أخرى أمامهما.

وبدلاً من الذهاب إلى أروشا دارا يساراً، من الواضح أنه قدّر بأن لديهما ما يكفي من الوقود، وفيما هو ينظر إلى أسفل رأى سحابة وردية غربالية الشكل متحركة فوق سطح الأرض وفي الهواء، بدت كطلائع هطول ثلج في إعصار ثلجي يُقبل من مكانٍ مجهول، وعرف بأن الجراد يأتي من الجنوب. ثم شرعا بالصعود وبدا بأنهما يتجهان إلى الشرق، ثم أظلم الجو ووقعا في عاصفة، كان المطر غزيراً جداً حتى بدا كأن الطائرة تطير بهما عبر شلال، وبعدئذٍ، خرجا منها وأدار كومبي رأسه وابتسم وأشار، وكان ما استطاع رؤيته أمامهما قمّة كيليماغارو المربعة الواسعة اتساع العالم كله، والعظيمة، والعالية، والبيضاء في الشمس بياضاً لا يصدقه العقل وحينذاك، عرف بأنه إلى هناك كان ذاهباً.

وفي تلك اللحظة تماماً توقف الضبع عن الهمهمة في الليل وبدأ يطلق صوتاً غريباً إنسانياً يكاد يكون باكياً. سمعته المرأة وتقلَّبت بضيق. لم تستيقظ. ورأت في حلمها أنها في البيت في الجزيرة الطويلة (لونج آيلاند) في الليلة السابقة لظهور ابنتها في الحياة الإجتماعية لأول مرة. وبطريقة ما، كان أبوها هناك وكان فظاً جداً. وكانت الضجة التي أثارها الضبع عالية جداً حتى أنها استيقظت. ومرت عليها لحظة لم تعرف أثناءها أين كانت وسيطر عليها خوف شديد. ثم أخذت المصباح اليدوي وسلطت نوره على السرير السفري الآخر الذي كانوا قد نقلوه إلى الخيمة بعد أن مضى هاري لينام. رأت كتلة جسمه تحت عمود الناموسية غير أنه كان قد أخرج رجله منها بطريقة ما وتدلت إلى الأسفل على امتداد السرير السفري. كانت الضمادات قد سقطت كلها ولم تستطع النظر إليها.

صاحت:

- مولو. مولو. مولو.

ثم قالت:

- هاري. هاري.

ثم ارتفع صوتها:

- هاري. أرجوك يا هاري.

لم يكن هناك من جواب ولم تسمعه يتنفس.

وخارج الخيمة، أطلق الضبع نفس الصوت الغريب الذي أيقظها. ولكنها لم تسمعه بسبب خفقان قلبها.

قَدِمَ جيم جيلمور إلى خليج هورتونز من كندا. واشترى محل الحدادة من الرجل العجوز هورتون. وكان جيم قصيراً وأسمر البشرة بشـــاربين كثين ويدين كبيرتين. كان حذّاء خيل جيداً ولـــم يكن يبدو كحدّاد حتى وهـو يرتـدي المئـزرة الجلـدية. كان يقيم في الطابـق العلوي الواقع فوق محل الحدادة ويتناول وجباته في مطعم د. ج. سميث.

كانت ليز كوتس تعمل في مطعم سميث. قالت السيدة سميث، التي كانت ضخمة جداً ونظيفة، بأن ليز كوتس هي أنظف فتاة رأتها طيلة حياتها. كانت لليز ساقان جميلتان وكانت ترتدي دائمـاً مريلـة نظيفة من قماش قطني مخطط وقد لاحظ جيم بأن شعرها كان دائماً مرتباً خلف رأسها. أحبّ وجهها لأنه كان بهيجاً ولكنه لم يفكر بهـا أبداً.

أحبت ليز جيم حباً جمـاً. أحبـت طريقـة مشيتـه وهـو قادم من المحل وكانت غالباً ما تذهب إلى باب المطبخ لتراقبه وهـو يشـرع

بعبور الطريق، أحبت فيه شاربيه. وأحبت فيه بياض أسنانه حين يبتسم. وأحبت فيه عدم تشبهه بالحدادين حباً جماً. وأحبته قدر حب د.ج. سميث والسيدة سميث له. ولاحظت في يوم ما بأنها تحب طريقة انتشار شعره الأسود على ذراعيه وبياضهما في المنطقة التي تعلو الخط الذي لوحته الشمس حين كان يغتسل في حوض اغتسال خارج المنزل. حبها لهذا كله جعلها تحس بأنها سخيفة.

كانت بلدة خليج هورتونز مؤلفة من خمسة بيوت فقط وواقعة على الطريق الرئيسي الموصل بين بوين سيتي وتشارليفوا. وكان فيها المخزن العام، ومكتب البريد بواجهة عالية زائفة وقد يكون هناك عربة مربوطة في الخارج أمام منزل سميث، ومنزل ستراود، ومنزل ديلويرث، ومنزل هورتون، ومنزل فان هوسين. وتقع المنازل في دغل كبير من أشجار الدردار وكان الطريق مغطى برمل سميك. وتقع الكنيسة الميثودية في أعلى الطريق ومدرسة المدينة في أسفل الطريق من الجهة الأخرى. كان محل الحدّاد مطلياً باللون الأحمر ومواجهاً المدرسة.

انحدر طريق رملي أسفل التل إلى الخليج عبر الغابة. ومن باب محل سميث الخلفي، كان يمكنك النظر عبر الغابة التي تمتد هابطة إلى البحيرة وعبر الخليج. كان المنظر جميلاً جداً في الربيع والصيف، فقد كان الخليج أزرق ساطعاً وكثيراً ما كان النسيم الذي يهب من تشارليفوا وبحيرة ميتشيغان يثير الأمواج المزبدة في البحيرة لتندفع إلى خارجها في مكان يتجاوز لسان البر. ومن باب سميث الخلفي، كان بإمكان ليز أن ترى بوارج نقل المواد الخام تخرج من

البحيرة متجهة نحو مدينة بوين. وحين كانت تنظر إليها لم تكن تبدو بأنها تتحرك أبداً ولكنها حين كانت تدخل إلى المطبخ لتجفف بعض أطباق أخرى ثم تعود إلى الخارج تكون السفن قد اختفت عن الأنظار وراء لسان البر.

تابعت ليز التفكير بجيم جيلمور طيلة الوقت. لم يكن يبدو بأنه يلاحظها كثيراً. كان يتحدث مع د. ج. سميث عن المحل وعن الحزب الجمهوري وجيمس. ج. بلاين. وفي الأماسي، كان يقرأ دتوليدو بلايد وصحيفة جراند رابيدز على ضوء مصباح الغرفة الأمامية أو كان يخرج لصيد السمك بالرمح في الخليج على ضوء مصباح الصيد مع د. ج. سميث. وفي الخريف، كان يأخذ هو وسميث وتشارلي وَايْمَن عربة وخيمة وديدان وفؤوس وبنادقهم وكلبين ويخرجون في رحلة إلى سهول أشجار الصنوبر وراء فانديربيلت لاصطياد الغزلان. كانت ليز والسيدة سميث تطبخان لهم طعاماً لأربعة أيام قبل أن يذهبوا للصيد. أرادت ليز أن تطبخ شيئاً خاصاً لجيم ليأخذه معه ولكنها لم تفعل لأنها كانت تخشى أن تطلب من السيدة سميث بيضاً ودقيقاً أو، إذا هي اشترت هذه الأشياء، أن تكتشفها السيدة سميث وهي تعدها. سيكون مثل هذا الأمر طبيعياً بالنسبة للسيدة، ولكن ليز كانت خائفة.

كانت ليز تفكر بجيم طيلة الوقت الذي يقضيه في صيد الغزلان. كانت الحياة رهيبة حين يكون غائباً. ولم تكن تستطيع النوم نوماً عميقاً بسبب التفكير فيه ولكنها اكتشفت بأن التفكير فيه يسبب لها البهجة والسرور. ولو تركت نفسها على سجيتها لسارت الأمور سيراً

حسناً. وفي الليلة السابقة ليوم رجوعهم، لم تستطع النوم أبداً، أو بالأحرى لم تعتقد بأنها نامت لأن الأمور اختلطت في حلم عن سهادها وعدم نومها فعلاً، حين رأت العربة تقترب على الطريق، أحسّت بالضعف والغثيان يخالجانها. لم تستطع الإنتظار حتى ترى جيم، وبدا لها بأن كل شيء أصبح على ما يرام حين حضر. وقفت العربة في الخارج تحت شجرة الدردار الضخمة وخرجت السيدة سميث وليز لاستقبالهم. كانت لحى الرجال قد نمت وانطرحت ثلاثة غزلان في الجزء الخلفي من العربة وقد برزت قوائمها المتيبّسة من فوق طرف صندوق العربة. قبلت السيدة سميث د. ج. سميث وعانقها سميث. قال جيم: «مرحباً يا ليز». وابتسم. لم تكن ليز تعرف ما سيحدث حين يعود جيم ولكنها كانت متأكدة بأن شيئاً ما سيحدث. لم يحدث أي شيء. لقد عاد الرجال إلى بيوتهم، ذلك كل ما حدث. سحب جيم أكياس الخيش عن الغزلان ونظرت ليز إليها. كان أحدها ذكر ظبي ضخماً. وكان متيبساً ومن الصعب إخراجه من العربة.

سألت ليز:

- هل اصطدته أنتَ يا جيم؟

- نعم. أليس جميلاً؟

حمله جيم على ظهره واتجه به إلى غرفة التدخين.

وفي تلك الليلة، بقي تشارلي وايمن لتناول العشاء في مطعم سميث. كان الوقت متأخراً جداً للعودة إلى تشارليفوا. اغتسل الرجال

وانتظروا في الغرفة الأمامية للعشاء .

سأل د . ج . سميث :

ـ ألم يبقَ شيء في تلك الجرة؟

وخرج جيم إلى العربة في الحظيرة وأحضر جرة الويسكي التي أخذها الرجال معهم في رحلة الصيد. كانت جرة تتسع لأربعة جالونات ولم يكن قد بقي فيها إلا القليل الذي كان يخضخض إلى الأمام والخلف في قعرها . أخذ جيم جرعة كبيرة وهو في طريق عودته إلى المنزل . كان من الصعب رفع جرة كبيرة كهذه لاحتساء الويسكي منها . انسكب بعض الويسكي على مقدمة قميصه . ابتسم الرجلان حين دخل جيم بالجرة . طلب د . ج . سميث كؤوساً فأحضرتها ليز . صبّ د . ج . سميث ثلاث جرعات كبيرة .

قال تشارلي وايمن :

ـ حسناً، نخب النظر إليك يا د . ج .

قال د . ج . سميث :

ـ ذلك الظبي الفخم اللعين يا جيمي .

قال جيم :

ـ هذا نخب كل الظباء التي أخطأناها .

وصب شرابه في جوفه .

ـ له مذاق لذيذ بالنسبة إلى الإنسان .

ـ لا يوجد ما يشابهها في مثل هذا الوقت من السنة لمعالجة كل ما تعانيه من آلام .

ـ ما رأيكم بدورة أُخرى من الشراب أيها الفتيان؟
ـ ليكن هذا يا د. ج.
ـ لننزل إلى الخليج أيها الفتيان.
ـ نخب السنة القادمة.

بدأ جيم يحسُّ بنشوة. كان يحب مذاق الويسكي والإحساس الذي يثيره. كان سعيداً برجوعه إلى سرير مريح وطعام ساخن وإلى المحل. تناول كأس شراب آخر. اتجه الرجال لتناول العشاء وهم في منتهى المرح ولكنهم تصرفوا برزانة. جلست ليز إلى الطاولة بعد أن وضعت الطعام وأكلت مع الأسرة. كان عشاءاً لذيذاً. أكل الرجال بهدوء. وبعد العشاء دخلوا الغرفة الأمامية مرة أُخرى ونظّفت ليز الطاولة مع السيدة سميث. وبعدئذٍ، صعدت إلى الطابق العلوي، وبعد مدة قصيرة جداً خرج سميث وصعد إلى الطابق العلوي أيضاً. بقي جيم وتشارلي في الغرفة الأمامية. جلست ليز في المطبخ بجوار الموقد تتظاهر بقراءة كتاب وهي تفكر بجيم. ولم ترد أن تمضي إلى الفراش لأنها كانت تعرف بأن جيم سيخرج، وأرادت أن تتزود بآخر نظرة منه، وهو يغادر المكان، وتأخذها معها إلى الفراش.

كانت تفكر فيه كثيراً. ثم خرج جيم. كانت عيناه تلمعان وشعره أشعث قليلاً. نظرت ليز في كتابها. اقترب جيم من خلف كرسيها ووقف هناك وأحست بأنفاسه وبعدئذٍ وضع ذراعيه حولها. امتلأ نهداها بالدماء وأصبحا صلبين وانتصبت حلمتاهما تحت يديه.

أحست ليز بخوف شديد. لم يسبق لأحد أن لمسها من قبل، ولكنها فكرت «وأخيراً جاء إليّ، جاء إليّ بالفعل».

تصلبت لأنها كانت خائفة جداً ولم تكن تعرف ما الذي يمكنها فعله غير هذا، ثم أمسك بها جيم وألصقها بإحكام على الكرسي وقبّلها. أثار فيها إحساساً حاداً ومؤلماً ومؤذياً لدرجة كبيرة جداً حتى أنها فكرت بأنها لن تستطيع احتماله. أحست بجيم من وراء الكرسي مباشرة ولم تستطع احتمال هذا ثم طقطق شيء في داخلها، وأصبح الإحساس الذي يعتريها أكثر دفئاً ونعومة. أمسك بها جيم بشدة حتى التصقت بالكرسي وأحست بأنها تريده الآن وهمس جيم في أُذنها: «لنقم بنزهة على الأقدام».

أخذت ليز معطفها عن المشجب المثبت على حائط المطبخ وخرجا. أحاطها جيم بذراعيه، وكانا يتوقفان بين خطوة وأخرى ليلتصقا ببعض ويقبلها جيم. كانت ليلة غاب قمرها وسارا وقد غُمرت أقدامهما حتى كواحلها في الطريق الرملي خلال الأشجار وهما يهبطان إلى الرصيف ومن ثم إلى المخزن في الخليج. ارتطمت الأمواج بأكوام الخشب وخيّم على لسان البر عبر الخليج ظلام. كان الجو بارداً ولكن ليز كانت تحس بالحرارة تشيع في جسمها كله لوجودها مع جيم. جلسا في سقيفة المخزن وضم جيم ليز إليه والتصقت به. كانت خائفة. تسللت إحدى يدي جيم إلى داخل ملابسها وداعبت نهدها وحطِ بيده الأخرى على حجرها. كانت خائفة جداً ولم تكن تعرف كيف سيتصرف معها ولكنها انكمشت ملتصقة به.

ثم ابتعدت اليد التي احستها كبيرة جداً على حجرهـا وحطـت علـى رجلها وبدأت تتحرك إلى الأعلى .

قالت ليز :

ـ لا يا جيم .

زلق جيم يده إلى أعلى .

ـ لا . يجب أن لا تفعل هذا يا جيم . يجب أن لا تفعل هذا .

لم يأبه جيم نفسه ولا يد جيم الكبيرة بما تقوله .

كانت ألواح الخشب قاسية . رفع جيم ملابسها إلى أعلى وكان يحاول أن يفعل شيئاً ما بها . كانت خائفة ولكنها أرادت ذلك . كان عليها أن تحصل على هذا الشيء غير أنه كان يخنقها كثيراً .

ـ يجب أن لا تفعل هذا يا جيم . يجب أن لا تفعله .

ـ يجب أن أفعله . سأفعله . أنت تعرفين بأننا يجب أن نفعله .

ـ لا . يجب أن لا تفعله يا جيم . يجب أن لا تفعلـه . أوه هذا غير صحيح ، أوه إنه كبير جداً وإنه يؤلم لدرجة كبيرة . لا تستطيع . أوه يا جيم . جيم . أوه .

كانت ألواح خشب الشوكران لأرصفـة الميناء صلبـة ومتشـظّية وباردة وكان جيم ثقيلاً فوقها وآلمها . دفعته ليز ، كانت غير مرتاحـة ومحصورة . كان جيم نائماً . ولم يتحرك . تحركت هي وخرجت من تحته . جلست وسوّت تنورتها ومعطفها وحاولت إصلاح شعرها . كان جيم نائماً وفمه مفتوح قليلاً . مالت ليز عليه وطبعت قبلة على خدّه .

كان ما يزال نائماً. رفعت رأسه قليلاً. وهزّته. دحرج رأسه وابتلع ريقه. وبدأت ليز تبكي. اقتربت من حافة الرصيف ونظرت إلى الأسفل إلى الماء. تصاعد ضباب من الخليج. كانت تشعر بالبرد والتعاسة وشعرت بأن كل شيء قد ولّى. رجعت إلى حيث يستلقي جيم وهزّته مرة أُخرى لتتأكد من أنه حي. كانت تبكي.

قالت:

- جيم. أرجوك. يا جيم. يا جيم.

تحرك جيم قليلاً ودار قليلاً منكمشاً على نفسه. خلعت ليز معطفها ومالت فوقه وغطته به. لفّت المعطفَ حوله بدقة وحرص. وبعدئذٍ، سارت عبر الرصيف ثم صعدت في الطريق الرملي المنحدر لتأوي إلى الفراش. وكان ضباب بارد يتصاعد عبر الغابة من الخليج.

على الرصيف في سميرنا

قال بأن الشيء الغريب كان الطريقة التى كانوا يصرخون فيها كل ليلة عند منتصف الليل . لم أكن أعرف لماذا كانوا يصرخون في ذلك الوقت. كنا في المرفأ وكانوا هم جميعاً على الرصيف وفي منتصف الليل بدأوا يصرخون . اعتدنا أن نسلط أضواء الكشاف عليهم لنجعلهم يهدأون . وكان هذا ينجح دائماً . كنا نحرك ضوء الكشاف إلى الأعلى وإلى الأسفل فوقهم مرتين أو ثلاث مرات فيتوقفون عن الصراخ . وفي وقت ما، كنت ضابطاً مسؤولاً عن الرصيف حين تقدم مني ضابط تركي وهو في حالة هياج رهيب لأن أحد بحارتنا وجه إليه إهانة فظيعة . لذلك أخبرته بأن الرجل سيُرسل إلى ظهر السفينة وهناك سيعاقب عقاباً قاسياً . طلبت منه الإشارة إليه من بين جماعة البحارة . فأشار إلى معاون مدفعي كان أكثر الشباب بُعداً عن العدوانية . قال لي، عن طريق مترجم ، بأنه قد أُهين إهانة شنيعة وفظيعة جداً وبشكل متكرر . لم أكن أستطيع أن أتخيل كيف كان يعرف معاون المدفعية ما يكفي من اللغة التركية لتوجيه إهانة إلى التركي .

طلبت منه الحضور وقلت له :

- هل تحدثت إلى أحد الضباط الأتراك؟

- لم أتحدث مع أي منهم يا سيدي .

قلت :

- أنا متأكد من هذا . لكن، يحسن أن تصعد إلى ظهر السفينة ولا تهبط إلى الشاطيء ثانية طيلة بقية النهار .

وأخبرت التركي بأن الرجل قد أُرسل إلى ظهر السفينة وسيُعامل أقسى معاملة ممكنة . أوه . أقسى صرامة . وصل إلى ذروة السعادة بسبب هذا . كنا صديقين عظيمين .

قال بأن أسوأ منظر كان منظر النساء الحاملات لأطفالهن الموتى . ولم يكن يمكنك إقناع النساء بالتخلي عن أطفالهن الموتى . كن يحتفظن بأطفالهن الموتى لمدة ستة أيام . ولم يكنّ يتخلين عنهم . ولم يكن بإمكانك فعل شيء بهذا الخصوص . وكان يجب أخذ الأطفال أخيراً . وكانت هناك سيدة عجوز تشكّل أكثر الحالات غرابة . اخبرت طبيباً بقصتها ولكنه قال لي بأنني أكذب . كنا نخلي الرصيف منهن، كان يجب إزالة الموتى عن الرصيف، وكانت المرأة العجوز تتمدد على نوع ما من النقالات . قالوا : «ألق نظرة عليها يا سيدي» . وألقيت نظرة عليها وفي تلك اللحظة تماماً ماتت وتيبس جسدها تيبساً كاملاً . تيبست ساقاها ثم تيبس جسدها من الخصر وأصبحت جامدة تماماً . كما لو أنها كانت ميتة تماماً طيلة الليل . كانت ميتة تماماً وجامدة تماماً . أخبرت طبيباً شاباً عنها ولكنه قال لي بأن هذا مستحيل .

كان الكل في الخارج على الرصيف ولم يكن الأمر شبيهاً بزلزال أو بشيء من هذا القبيل لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التُرك. لم يكونوا يعرفون ما سيفعله التركي العجوز. تَذْكرون وقت أمرونا أن لا ندخل المرفأ ونخرج أي موتى آخرين؟ كنتُ خائفاً حين دخلنا في ذلك الصباح. كان لديه ما يكفي من البطاريات وكان باستطاعته نسفنا وإزالتنا من المياه. وكنا نعتزم الدخول والإقتراب من الرصيف وإنزال المراسي الأمامية والخلفية، وبعدئذٍ نقصف الحي التركي من المدينة. كان بمقدورهم نسفنا وإزالة وجودنا من الماء، ولكنه كان بمقدورنا أن ننسف المدينة ونحولها إلى جحيم ببساطة. أطلقوا علينا قليلاً من القذائف الطائشة حين دخلنا. وهبط كمال وطرد القائد التركي لتجاوزه الصلاحيات المناطة به أو لشيء من هذا القبيل. لقد ارتفع عن واقعه قليلاً كان الأمر سيتطور إلى فوضى جهنمية.

أنت تذكر المرفأ. كان هناك الكثير من الأشياء الرائعة طافية في كل مكان فيه. كان ذلك هو الوقت الوحيد في حياتي الذي حققت فيه ما حلمت به من أشياء. أنت لا تبالي بالنساء اللواتي لديهن أطفالٌ رُضَّع قدر مبالاتك بالنساء اللواتي لديهن أطفال ميتون. إنهن في حالة طبيعية وهن يحملنهم. كم هو مدهش قلة عدد من ماتوا. كل ما فعلته هو تغطيتهن ثم تركهن يذهبن إلى المرفأ. كن يخترن دائماً أكثر الأماكن عتمة في مخزن السفينة الذي يضمهن. لم تكن أية واحدة تهتم بأي شيء حالما تغادر رصيف المرفأ.

كان اليونانيون شباباً طيبين أيضاً. حين جلوا عن المكان أحضروا معهم حيواناتهم التي تنقل أمتعتهم والتي لم يكونوا قادرين

على أخذها معهم لذلك كانوا يكسرون قوائمها الأمامية ويرمون بها في المياه الضحلة . كل تلك البغال المكسورة القوائم الأمامية وهي تدفع إلى المياه الضحلة . كان ذلك كله عملاً ساراً ، إنني أقولها ، نعم ، إنه عمل سار جداً .

مخيم هندي

كان الكل سكارى. كان كامل أفراد المجموعة سكارى على الطريق في الظلام. كنا ذاهبين إلى شامبانيا. بقي الملازم راكباً حصانه في الحقول وقائلاً له: «أنا سكران. هذا ما أقوله لك يا شيخي. آه. أنا سكران جداً». سرنا على الطريق طوال الليل في الظلام وبقي الضابط المساعد للقائد راكباً إلى جانب مطبخي ومردداً: «يجب أن تطفئها، إنها خطيرة. سترى من بعيد». كنا على بعد خمسين كيلومتراً من الجبهة ولكن الضابط المساعد للقائد كان خائفاً من النار في المطبخ. كان السير مبهجاً على ذلك الطريق. كان ذلك حين كنت عريف طباخ.

* * *

على شاطيء البحيرة، كان هناك زورق تجذيف آخر مسحوب. وقف الهنديان ينتظران. صعد نيك وأبوه إلى مؤخرة القارب ودفعه الهنود بعيداً عن الشاطيء وصعد أحدهم إلى داخل القارب ليجذِّف. جلس العم جورج في مؤخرة قارب المخيم. دفع الهندي الشاب

القارب بعيداً عن الشاطيء وصعد إليه ليجذف بالعم جورج .

انطلق القاربان مبتعدين في الظلام . سمع نيك صوت مساند مجاذيف القارب الآخر وهو يتقدمهم بمسافة طويلة في الضباب . جذف الهنود بضربات قاطعة سريعة . مال نيك إلى الخلف وذراع أبيه تحيط به . كان الجو بارداً في الماء . والقارب الآخر يتقدمهم بمسافة طويلة في الضباب طيلة الوقت .

سأل نيك :

- أين ستذهب يا أبي ؟

- إلى مخيم الهنود . توجد سيدة هندية مريضة جداً هناك .

قال نيك :

- أوه .

وعبر الخليج ، وجدوا القارب الآخر راسياً على الشاطيء . كان العم جورج يدخن سيجاراً في الظلام . جر الهندي الشاب القارب إلى الشاطيء . أعطى العم جورج لكل هندي من الهنديين سيجاراً .

مشوا من الشاطيء خلال موجة كانت مبلّلة بفعل الندى وهم يتبعون الهندي الشاب الذي كان يحمل قنديلاً . ثم دخلوا الغابة وساروا على ممر قادهم إلى طريق احتطاب يؤدي إلى داخل التلال . كانت الإضاءة أكثر وضوحاً في طريق الإحتطاب لأن الأشجار كانت قد قطعت تماماً من كلا جانبي الطريق . وقف الهندي وأطفأ قنديله وواصل الجميع السير على طول الطريق . وصلوا إلى منحنى وخرج كلبٌ نابحاً . وتناثرت أمامهم أضواء الأكواخ التي يعيش فيها الهنود

نازعو لحاء الشجر. اندفعت كلاب أُخرى خارجة نحوهم. أعادها الهنديان إلى الأكواخ. ومن أقرب كوخ إلى الطريق، انبعث نور من النافذة. وقفت امرأة عجوز في مدخل الباب حاملة مصباحاً. وفي الداخل وعلى سرير خشبي، تمددت هندية شابة. كانت تحاول وضع طفلها منذ يومين، كانت تساعدها على هذا كل النساء العجائز في المخيم، ابتعد الرجال على الطريق ليجلسوا في الظلام ويدخنوا وهم خارج نطاق الضجة التي كانت تطلقها، وأطلقت صرخة في اللحظة التي تبع فيها نيك والهنديان أباه وعمه جورج إلى داخل الكوخ. كانت تتمدد على السرير الخشبي الضيق السفلي وهي تبدو ضخمة جداً تحت الغطاء. كان رأسها قد استدار إلى أحد الجانبين. وعلى السرير الخشبي العلوي تمدد زوجها. كان قد جرح قدمه جرحاً خطيراً بفأس قبل ثلاثة أيام. كان يدخن غليوناً. وانبعثت من الغرفة رائحة كريهة جداً.

أمر والد نيك بوضع بعض الماء على الموقد، وفيما كان الماء يسخن، قال لنيك:

ـ ستضع هذه السيدة طفلاً يا نيك.

قال نيك:

ـ أنا أعرف.

قال والده:

ـ أنت لا تعرف. اصغِ إليّ. ما تعاني منه الآن يدعى حالة مخاض. فالطفل يريد أن يولد وهي تريده أن يولد. وتحاول كل عضلاتها أن

تجعل الطفل يولد. ذلك هو ما يحدث عندما تصرخ.

قال نيك:

- فهمت.

وفي تلك اللحظة تماماً صرخت المرأة.

سأل نيك:

- ألا تستطيع إعطاءها شيئاً يجعلها تكف عن الصراخ يا أبي؟

قال والده:

- لا. ليس لدي أي مسكّن. ولكن صرخاتها ليست مهمة. إنني لا أسمعها لأنها ليست مهمة.

تدحرج الزوج في السرير العلوي ليلتصق بالحائط.

أومأت المرأة في المطبخ إلى الطبيب بأن الماء قد أصبح ساخناً. دخل والد نيك إلى المطبخ، وصبّ حوالي نصف الماء من الغلاية الكبيرة في طست. ووضع في الماء الباقي في الغلاية أشياء عديدة كانت ملفوفة في منديل.

قال:

- يجب أن تغلي هذه الأشياء.

وبدأ يفرك يديه في طست الماء الساخن بكعكة من الصابون أحضرها معه من المخيم. راقب نيك يدي والده تفرك إحداهما الأخرى بالصابون. وفيما كان أبوه يغسل يديه بعناية، قال:

- أترى يا نيك، من المفروض أن يولد الأطفال ورؤوسهم تخرج

أولاً، ولكن الأمر لا يكون على هذا الشكل في بعض الأحيان. وحين لا يكون الأمر على هذا الشكل، يسببون كثيراً من المتاعب للكل. وقد اضطر لاجراء عملية جراحية على هذه السيدة. سنعرف هذا خلال فترة وجيزة.

وبعد أن رضي عن غسيل يديه وشرع بالعمل،

قال:

- اسحب ذلك الغطاء عنها يا جورج. يحسن أن لا ألمسه.

وفيما بعد، وحين بدأ بإجراء العملية، أمسك العم جورج وثلاثة هنود بالمرأة لتسكن حركتها. عضّت العم جورج في ذراعه، وقال العم جورج: «اللعنة عليك أيتها الكلبة الهندية». وضحك الهندي الذي جذف القارب الذي أقلّ العم جورج. حمل نيك الطست لوالده. استغرق الأمر وقتاً طويلاً. رفع أبوه الطفل عالياً وضربه حتى يجعله يتنفس وسلّمه إلى المرأة العجوز.

قال:

- أترى يا نيك؟ إنه ولد. أتحب أن تصبح طبيباً تحت التدريب.

قال نيك:

- نعم.

كان يشيح بنظره عن والده حتى لا يرى ما كان يفعله أبوه.

قال والده:

- أخيراً. لقد انهينا العمل.

ووضع شيئاً في الطست.

لم ينظر نيك إليه.

قال والده:

- والآن. علينا أن نخيط بعض القطب. تستطيع أن تراقب ما يجري أو تشيح بنظرك عنه يا نيك، هذا يعود إليك. سأخيط الآن الجرح الذي شققته.

لم يراقب نيك ما كان يجري. لقد فقد فضوله منذ وقت طويل.

أنهى والده العمل ونهض واقفاً. وقف العم جورج وثلاثة هنود. أدخل نيك الطست إلى المطبخ.

نظر العم جورج إلى ذراعه. وابتسم الهندي الشاب متذكراً.

قال الطبيب:

- سأضع بعض البيروكسيد عليها يا جورج.

انحنى فوق المرأة الهندية. كانت هادئة الآن وعيناها مغمضتان. بدت شاحبة جداً. لم تعرف ما حدث للطفل أو أي شيء آخر.

قال الطبيب وهو يقف:

- سأرجع في الصباح. ستصل الممرضة من سينت أجناس حوالي الظهر، وستحضر معها كل ما نحتاجه.

كان يشعر بنشاط عظيم ورغبة بالثرثرة كلاعبي كرة القدم في غرفة تغيير الملابس بعد انتهاء المباراة.

قال :

- هذا موضوع يصلح للنشر في المجلة الطبية يا جورج، إجراء عملية قيصرية بسكين مطواة وخياطتها بأوتار عضلية معوية مستدقة بطول تسعة أقدام .

كان العم جورج يستند إلى الحائط ناظراً إلى ذراعه .

قال :

- أوه . أنت رجل عظيم حقاً .

قال الطبيب :

- يجب أن نلقي نظرة على الوالد الفخور . هم أكثر من يقاسي عادة من هذه الأمور الصغيرة، لا بد لي أن أقول بأنه أخذ الأمر بهدوء تام .

سحب الغطاء عن رأس الهندي . خرجت يده مبللة . صعد على حافة السرير الخشبي السفلي والمصباح في إحدى يديه، ونظر. كان الهندي متمدداً على السرير ووجهه نحو الحائط. كانت رقبته مقطوعة من الأذن حتى الأذن الأخرى . كان الدم قد تدفق هابطاً ليكون بركة في الماء الذي تدلى جسده على السرير الخشبي . استقر رأسه على ذراعه الأيسر. واستقر الموسى المفتوح ونصله إلى أعلى بين الأغطية .

قال الطبيب :

- اخرج نيك من الكوخ يا جورج .

لم يكن من داعٍ . فقد كان باستطاعة نيك وهـو يقف في باب المطبخ أن يرى جيداً السرير الخشبي العلوي حين دفع أبوه رأس الهندي إلى الخلف والمصباح في إحدى يديه .

كان ضوء النهار قد بدأ يطلع حين مشوا على طريق الإحتطاب عائدين إلى البحيرة .

قال أبوه :

ـ أنا آسف جداً يا نيكي لأنني أحضرتك معي .

كانت فرحته التي أحس بها بعد إجراء العملية قد تلاشت .

ـ كان تصرفاً سيئاً توريطك في مثل هذا الموقف .

سأل نيك :

ـ هل تمضي السيدات أوقاتاً عصيبة كهذه بوضعهن أطفالاً؟

ـ لا . ذلك كان استثنائياً جداً جداً .

ـ لماذا قتل نفسه يا أبي؟

ـ لا أدري يا نيك . لم يستطع احتمال الأشياء ، على ما أظن .

ـ هل يقتل كثير من الرجال أنفسهم يا أبي؟

ـ ليس الكثير جداً يا نيك .

ـ هل تقتل كثير من النساء أنفسهن؟

ـ نادراً ما يفعلن .

ـ ألا يفعلن هذا أبداً؟

ـ أوه . نعم . إنهن يفعلن هذا أحياناً .

- أبي .
- نعم .
- أين ذهب العم جورج؟
- سيعود حالاً .
- هل الموت صعب يا أبي؟
- لا . أظن أنه سهل جداً يا نيك . كل هذا يعتمد .

كانا يجلسان في القارب ، نيك في المؤخرة وأبوه يجذف . كانت الشمس ترتفع فوق التلال . قفز ذئب البحر مثيراً دوائر في الماء . غمس نيك يده في الماء . كان الماء دافئاً في برودة الصباح القارسة .

وفي الصباح الباكر وعلى سطح البحيرة وهو يجلس في مؤخرة القارب وأبوه يجذف ، ساوره شعور أكيد تماماً بأنه لن يموت أبداً .

الطبيب وزوجة الطبيب

ارتفعت المآذن شامخة تحت المطر خارج ادريانوبل عبر المباني الطينية. وازدحم طريق كارجاتش على طول ثلاثين كيلومتراً بالعربات. كانت ثيران الماء والأبقار تجر العربات في الوحل. دون نهاية ولا بداية. لم تكن سوى عربات محملة بكل ما يملكونه من متاع. وسار الرجال والنساء الكبار السن مبللين وهم يحثون القطيع على الحركة. جرى ماء نهر ماريتزا أصفر اللون إلى ارتفاع الجسر تقريباً. وغص الجسر بالعربات بينما شقت الجمال طريقها بينها. تجمع الفرسان اليونانيون على طول الموكب. وجلست النساء والأطفال القرفصاء في العربات مع الفرشات والمرايا وآلات الخياطة والصرر. كانت هناك امرأة تحمل طفلاً ومعها بنت صغيرة تمسك ببطانية فوقها وهي تبكي وتصرخ. كانت المرأة مرتعبة لدرجة المرض وهي تنظر إليها. أمطرت السماء طيلة الفترة التي جرى فيها الإجلاء.

* * *

قدم ديك باولتون من المخيم الهندي لقطع الأخشاب لوالد نيك. أحضر ابنه إيدي وهندياً آخر يدعى بيلي. دخلوا من خلال البوابة الخلفية من الغابة وإيدي يحمل منشار قطع متعارض طويلاً. تخبّط المنشار مرتفعاً ومنخفضاً ومصدراً صوتاً موسيقياً على كتف إيدي وهو يسير. حمل تابيشو كلاّبين مائلين كبيرين. وكان ديك يحمل ثلاثة فؤوس تحت ذراعه. إستدار وأغلق البوابة. وسار الآخران أمامه على شاطيء البحيرة حيث دفنت زنود الخشب في الرمل.

انفصلت زنود الخشب عن كتل الخشب العائمة الكبيرة المربوطة في أسفل البحيرة لنقلها إلى المنشرة السفينة التجارية «ماجيك».

انجرفت الأخشاب إلى الشاطيء، وإذا لم يتم شيء بخصوصها، فإن طاقم السفينة «ماجيك» سيحضرون، عاجلاً أو آجلاً، إلى الشاطيء على متن قارب تجذيف ليحددوا مواقع الأخشاب ويدفعوا بعمود حديدي بحلقة يدخلونها في نهاية كل زند خشبي ثم يسحبونها إلى داخل البحيرة ليشكلوا معها كتلة عائمة جديدة. وقد لا يحضر الحطابون بحثاً عنها لأن بضعة زنود من الأخشاب لا تعادل أجر طاقم يقوم بتجميعها. وإذا لم يحضر أي شخص لأخذها فإنها تبقى هناك لتثقل بفعل تشرّبها للماء وتتعفن على الشاطيء. وافترض والد نيك بأن هذا ما يحدث دائماً. لذلك استأجر الهنود ليحضروا من المخيم لقَطع زنود الخشب قطعاً صغيرة بمنشار قطع متعارض وفلقها بالاسفين وحزمها وتكديسها وقطعها إلى

قطع قصيرة غليظة لاستعمالها في المدفأة المكشوفة . دار ديك باولتون حول الكوخ متجهاً إلى البحيرة . استقرت هناك أربعة زنود خشب زان كبيرة وهي تكاد تكون مدفونة في الرمل . علّق أيدي المنشار من أحد مقبضيه في متشعب شجرة . ووضع ديك الفؤوس الثلاثة على الرصيف الصغير . كان ديك مولّداً واعتقد الكثير من المزارعين في المنطقة بأنه رجل أبيض تماماً . كان كسولاً جداً ولكنه كان يعمل بجد كبير حالما يبدأ العمل . أخرج قرص تبغ مضغوط من جيبه وعض منه مضغة وتحدث بلغة أوجيبواي إلى إيدي وبيلي تابيشو .

غرزوا أطراف كلاباتهم المائلة في أحد زنود الخشب وألقوا بثقلهم عليه ليحرروه من مكانه في الرمل . ألقوا بثقلهم على أذرع الكلابات المائلة . تحرك الزند في الرمل .

التفت ديك باولتون إلى والد نيك :

قال :

ـ حسناً يا دوك . إنها كمية لا بأس بها من الخشب هذه التي سرقتها .

قال الطبيب :

ـ لا تتكلم بهذه الطريقة . إنه خشب جرفته المياه وألقت به هنا .

حرك إيدي وتابيشو الزند وهزّاه حتى خرج من الرمل المبلل ودحرجاه نحو الماء .

صاح ديك باولتون :

ـ ضعوه هنا في الماء .

سأل الطبيب :

- لم تفعلون هذا؟

قال ديك :

- لنغسله . لننظفه من الرمل حتى نعمل فيه المنشار . أُريد أن أعرف اسم مالكه .

غمرت مياه البحيرة الزند في تلك اللحظة . انحنى إيدي وبيلي تابيشو على كلاّبتيهما المائلتين وهما يتفصدان عرقاً تحت الشمس . ركع ديك في الرمل ونظر إلى علامة مطرقة التعداد في الخشب في طرف الزند .

قال وهو يقف وينفض ركبتي سرواله :

- إنها ملك وايت وماكنالي .

أحس الطبيب بالضيق وقال بفظاظة :

- يحسن أن لا تنشرها وتقطعها إذاً .

قال ديك :

- لا تكن نزقاً يا دوك . لا تكن سريع الغضب . لا يهمني ممن سرقتها ، ليس هذا من شأني .

قال الطبيب :

- إذا فكرت بأن زنود الخشب هذه مسروقة فدعها واجمع عدتك وعد إلى المخيم .

احمرّ وجه الطبيب .

قال ديك :

ـ لا تنفجر من الغضب يا دوك .

بصق عصير التبغ على زند خشب . انزلق العصير وهبط إلى الماء لينحل فيه .

ـ أنت تعرف بأنها مسروقة تماماً كما أعرف أنا هذا . إن هذا الأمر لا يؤخر ولا يقدّم بالنسبة إلي .

ـ والآن يا دوك ـ

ـ خذ عدتك وانصرف .

ـ اسمع يا دوك .

ـ إذا ناديتني دوك مرة أُخرى فإنني سأخلع لك ناب عينيك وأُبلعك إياه .

ـ أوه . لا . لن تفعل هذا يا دوك .

نظر ديك باولتون إلى الطبيب . كان ديك رجلاً ضخماً . وكان يعرف مدى ضخامته . كان يحبُّ الدخول في عراك . وكان سعيداً . اتكأ إيدي وتابيشو على كلاّبتيهما المائلتين ونظرا إلى الطبيب . مضغ الطبيب لحية شفته السفلى ونظر إلى ديك باولتون ثم دار على عقبيه وسار صاعداً التل نحو الكوخ . كان باستطاعتهم رؤية مدى غضبه من ظهره . راقبوه جميعاً يصعد التل ويدخل الكوخ . قال ديك شيئاً بلغة أوجيبواي . ضحك إيدي ولكن بيلي تابيشو بدا جاداً جداً . لم يكن يفهم اللغة الإنجليزية ولكنه تفصّد عرقاً طيلة الوقت الذي دار فيه النزاع . كان سميناً بشعرات قليلة على الشاربين

كصيني . التقط الكلاّبتين المائلتين . التقط ديك الفؤوس وأنزل إيدي المنشار عن الشجرة . شرعوا بالسير بمحاذاة الكوخ وخرجوا من البوابة الخلفية إلى الغابة . ترك ديك البوابة مفتوحة . عاد بيلي تابيشو وأحكم إغلاقها . اختفوا داخل الغابة . رأى الطبيب من داخل الكوخ وهو يجلس على السرير في غرفته كومة من المجلات الطبية على الأرض قرب المكتب . وكانت ما تزال داخل أغلفتها دون أن تفتح . أغاظه هذا كثيراً .

سألت زوجة الطبيب من الغرفة التي كانت تستلقي فيها والمسدلة الستائر .

- ألن تعود إلى العمل يا عزيزي؟
- لا .
- هل حدث شيء ما؟
- تشاجرت مع ديك باولتون .

قالت زوجته :

- أوه . أرجو أن لا تكون قد فقدت أعصابك يا هنري .

قال الطبيب .

- لا .

قالت زوجته :

- تذكر بأن الشخص الذي يتحكم بنفسه أعظم من الرجل الذي يحتل مدينة .

كانت عالمة مسيحية استقر انجيلها ونسخة من «العلم والصحة»

ومجلتها «كوورتيرلي» على الطاولة إلى جانب سريرها في الغرفة المظلمة .

لم يجبها زوجها . كان يجلس في سريره الآن وهو ينظف بندقيته الرش . دفع الخزان المليء بالقذائف الصفراء الكبيرة ثم أخرجها مرة أُخرى . تناثرت القذائف على السرير .

نادت زوجته عليه :

- هنري .

ثم صمتت للحظة .

- هنري .

قال الطبيب :

- نعم .

- لم تقل لباولتون ما أثار أعصابه ، أليس كذلك؟

قال الطبيب :

- لا .

- ما سبب المشكلة إذاً يا عزيزي؟

- لا شيء .

- أخبرني يا هنري . أرجوك أن لا تحاول إخفاء شيء عني . ما سبب المشكلة؟ .

- حسناً . يدين ديك لي بمبالغ كبيرة لأنني عالجت زوجته الهندية من مرض ذات الرئة وأظن أنه أراد إثارة شجار حتى لا يسدد هذا الدين بعمله .

صمتت زوجته . مسح الطبيب بعناية بندقيته بقطعة قماش . أعاد دفع القذائف في الداخل قبالة نابض الخزان . جلس والبندقية على ركبتيه . كان مغرماً بها جداً . ثم سمع صوت زوجته يصله من الغرفة المظلمة .

- يا عزيزي، لا أُصدق حقاً بأن هناك أي شخص يقدم على عمل كهذا .

قال الطبيب :

- لا؟

- لا . لا أستطيع أن أُصدق حقاً بأن أي شخص يقدم على عمل كهذا عن قصد .

وقف الطبيب ووضع بندقيته الرش في زاوية خلف طاولة الزينة .

قالت زوجته :

- هل ستخرج يا عزيزي؟

قال الطبيب :

- أعتقد بأنني سأخرج للسير على الأقدام .

قالت زوجته :

- إذا رأيت نيك يا عزيزي، فهل تسمح بإعلامه بأن أُمه تريد أن تراه؟

خرج الطبيب إلى شرفة المدخل . انغلق الباب الحاجز وراءه بعنف . وسمع زوجته تلتقط أنفاسها حين انغلق الباب .

قال :

ـ آسف .

من خلف نافذتها والستائر مسدلة عليها، قالت :

ـ لا عليك يا عزيزي .

مشى تحت الحرارة خارجاً من البوابة وعلى الممر ثم دخل غابة الشوكران . وكان الجو ندياً في الغابة حتى في مثل هذا اليوم الحار . وجد نيك يجلس وظهره على شجرة وهو يقرأ .

قال الطبيب :

ـ أُمك تريدك أن تذهب لتراها .

قال نيك :

ـ أُريد أن أذهب معك .

حط أبوه بنظره عليه .

قال والده :

ـ حسناً . هيا إذاً . أعطني الكتاب . سأضعه في جيبي .

قال نيك :

ـ أعرف أين توجد سناجب سوداء يا أبي .

قال والده :

ـ حسناً إذاً . لنذهب إلى هناك .

نهاية شيء ما

كنا في حديقة في مونز. دخل يونج باكلي مع دوريته من الجانب الآخر من النهر. رأيت الألماني الأول يتسلق سور الحديقة. انتظرنا حتى وضع رجلاً فوق السور ثم اطلقنا عليه النار. كان يحمل الكثير من الأدوات وبدا مندهشاً تماماً ثم سقط في الحديقة. ثم ظهر ثلاثة آخرون على ارتفاع أقل أسفل السور، فأطلقنا عليهم الرصاص وجندلناهم. اقتربوا كلهم بهذه الطريقة تماماً.

* * *

في سالف الأيام كانت مدينة خليج هورتونز مدينة لنشر الخشب. ولم يكن أي من الذين يعيشون في تلك المدينة خارج مدى صوت المناشير الضخمة في المنشرة القائمة إلى جانب البحيرة. وفي سنة من السنين لم يعد هناك زنود خشب لصنع الألواح منها. ودخلت سفن النقل (سكونات) Schooners الخشب إلى داخل الخليج وحُمِّلت بقطع خشب المنشرة المكوّمة في الفناء. حملت كل أكوام الخشب ونُقلت بعيداً. وفكت كل الآليات التي يمكن إزالتها من مبنى المنشرة

وحملها الرجال الذين كانوا يعملون في المنشرة ورفعوها إلى إحدى السكونات. أبحرت السكونة خارجة من الخليج نحو البحيرة المكشوفة تحمل منشارين ضخمين والعربة المتحركة التي تقذف زنود الخشب إلى المناشير الدوارة الدائرية وكُوّمت كل الأسطوانات والعجلات والأحزمة والحديد على حمل من الخشب يملأ السفينة من قاعها حتى سطحها. وغطي عنبرها المكشوف بقماش القنب وربطت بإحكام ثم رفعت أشرعة السكونة وتحركت داخل البحيرة المكشوفة تحمل معها كل ما كان يجعل المنشرة منشرة وخليج هورتونز مدينة.

انتصبت المباني المخصصة لنوم العمال ذات الطابق الواحد ومبنى الطعام ومخزن الشركة ومكاتب المنشرة والمنشرة الضخمة نفسها مهجورة في فدادين من نشارة الخشب التي غطت المرج المستنقعي المجاور لشاطيء الخليج.

وبعد عشر سنوات لم يبق من المنشرة سوى بياض حجر جير أساساتها المكسورة الظاهرة من خلال الأشجار المستنقعية التي عادت لتنمو من جديد فيما كان نيك وماجوري يجذفان على طول الشاطيء. كانا يصيدان السمك بالصنارة على حافة ضفة القناة حيث يهبط القاع فجأة من مياه رملية ضحلة إلى مياه مظلمة بعمق إثني عشر قدماً. وكانا يصيدان الأسماك بالصنارة وهما في طريقهما إلى لسان البر ليضعا صنانيرهما لصيد سمك تروتة قوس قزح ليلاً.

قالت مارجوري:

ـ ها هي آثارنا القديمة يا نيك.

نظر نيك إلى الحجارة البيضاء بين الأشجار الخضـراء فيمـا هو يجذف .

قال :

ـ ها هي هناك .

قالت مارجوري :

ـ هل تذكرها حين كانت منشرة؟

قال نيك :

ـ أذكرها قليلاً .

قالت مارجوري :

ـ تبدو قلعة أكثر منها منشرة .

لم يقل نيك شيئاً . واصلا التجذيف حتى اختفـت المنشـرة عن الأنظار وهم يتبعون خط الشاطيء . وعبر نيك البحيرة بعدئذٍ .

قال :

ـ لم تلتقط الطعم .

قالت مارجوري :

ـ لا .

كانـت تحـدق في القصبـة طيلـة الوقـت التـي كانـا يصيدان فيها السمك حتى وهي تتكلم . كانت تحب صيد السمك . كانـت تحـب صيد السمك مع نيك .

ولصق القارب، شقت سمكة تروتة ضخمة سطح الماء . دفـع نيك بقوة أحد المجذافين حتى يدور القارب ويمر الطعم الذي يدوّم

على مسافة بعيدة خلفه في المكان الذي يتغدى فيه سمك التروتة. وحينما برز ظهر التروتة فوق الماء قفز سمك المينوة بعنف وتناثرت هذه الأسماك على سطح الماءمثل تناثر حفنة قذائف صغيرة قُذف بها في الماء. قفزت سمكة تروتة وخرقت سطح الماء وهي تتغدى في الجانب الآخر من القارب.

قالت مارجوري:

- إنهم يتغدون.

قال نيك:

- لكنها لن تعض الطعم.

جذف بالقارب حول المكان ليصطاد من بين السمك الذي يتغذى، ثم اتجه نحو رأس البر. لم تلف مارجوري خيط الصنارة على البكرة إلا بعد أن لامس القارب الشاطيء.

سحبا القارب إلى الشاطيء ورفع نيك سطلاً مليئاً بسمك الفرخ الحي. كان سمك الفرخ يسبح في ماء السطل. أمسك نيك ثلاثاً منها بيديه وقطع رؤوسها وسلخ جلودها بينما طاردت مارجوري سمكة فرخ بيديها الغاطستين في ماء السطل. وأخيراً أمسكت بسمكة فرخ فقطعت رأسها وسلخت جلدها.

نظر نيك إلى سمكتها.

قال:

- لا تريدين نزع الزعنفة البطنية منها. ستكون طُعماً مناسباً غير أن من الأفضل أن تبقى الزعنفة البطنية فيها.

غرز الشص في كل فرخ مسلوخ خلال الذنب . كان هناك شصّان مربوطان في وتر الطعم على كل قصبة . جذفت مارجوري بالقارب خارجة فوق ضفة القناة ممسكة بالخيط بأسنانها وناظرة نحو نيك الذي وقف على الشاطىء ممسكاً بالقصبة وتاركاً الخيط ينفلت من البكرة .

وصاح قائلاً :

- لقد أصبحت صالحة تقريباً .

ردت مارجوري وهي تمسك القصبة في يدها :

- هل أُسقِطُها؟

- أسقطيها .

وأسقطت مارجوري الخيط من فوق ظهر القارب وراقبت الطعوم تغطس في الماء .

دخلت بالقارب ورمت بالخيط الثاني بنفس الطريقة . وضع نيك لوح خشب طفوٍ ثقيل على عقب القصبة، كل مرة، حتى تستقر على وضع ثابت وأسندها مكوّنة زاوية مع لوح صغير. ولفّ الخيط المرتخي إلى داخل البكرة فتوتر الخيط حتى المكان الذي استقر فيه الطعم على أرضية القناة الرملية وأطبق السقّاطة على البكرة . حين تلتقط سمكةُ تروتة ، تتغذى في القاع ، الطعمَ فإنها ستجري به ساحبةً الخيط من البكرة وجاعلة البكرة تئز والسقاطة مطبقة عليها .

جذفت مارجوري إلى رأس البر إلى مسافة قصيرة حتى لا تهز الخيط. سحبت المجاذيف بقوة واتجه القارب إلى الشاطيء . اندفعت مويجات مع القارب . خطت مارجوري خارجة من القارب

وسحب نيك القارب إلى الشاطيء .

سألت مارجوري :

ـ ما الأمر يا نيك؟

قال نيك وهو يجمع الحطب لإشعال نار :

ـ لا أدري .

أشعلا ناراً من الخشب الطافي على الماء . ذهبت مارجوري إلى القارب وأحضرت بطانية . هب نسيم المساء ودفع الدخان نحو رأس البر فنشرت مارجوري البطانية بين النار والبحيرة .

جلست مارجوري على البطانية وقد أدارت ظهرها إلى النار وانتظرت نيك . تقدم وجلس إلى جانبها على البطانية . وامتدت خلفهما أشجار لسان البر المقطوعة التي بدأت تنمو من جديد وامتد أمامهما الخليج فم خليج هورتونز . لم يكن هناك ظلام تام . وانتشر ضوء النار حتى الماء . تمكن كلاهما من رؤية القصبتين الفولاذيتين مكونتين زاويتين فوق الماء المظلم . وتلألأت النار على البكرات .

فتحت مارجوري سلة العشاء وأخرجت ما فيها .

قال نيك :

ـ لا أشعر برغبة للأكل .

ـ تعال وكل يا نيك .

ـ حسناً .

أكلا دون أن ينبسا ببنت شفة وراقبا القصبتين وضوء النار في الماء .

قال نيك :

ـ سيطلع القمر هذه الليلة .

نظر عبر الخليج إلى التلال التي بدأت تكوّن قمماً حادة تحت السماء . وخلف التلال ، عرف بأن القمر كان يرتفع .

قالت مارجوري والسعادة تغمرها :

ـ أعرف هذا .

قال نيك :

ـ إنك تعرفين كل شيء .

ـ أوه يا نيك . كفّ عن هذا . أرجوك ، لا تتصرف بهذه الطريقة .

قال نيك :

ـ لا أستطيع منع نفسي . أنت تستطيعين . أنت تعرفين كل شيء هذه هي المشكلة . أنت تعرفين كل شيء .

لم تقل مارجوري شيئاً .

ـ علمتك كل شيء . أنت تعرفين هذا . ما الذي لا تعرفينه على أي حال ؟

قالت مارجوري :

ـ أوه . إخرس . ها هو القمر يطلع .

جلسا على البطانية دون أن يلمس أحدهما الآخر وشاهدا القمر وهو يرتفع .

قالت مارجوري :

ـ عليك أن لا تتكلم سخافات . ما بك حقاً؟

ـ لا أعرف .

ـ أنت تعرف طبعاً .

ـ لا . أنا لا أعرف .

ـ قل : ما بك؟

واصل نيك النظر إلى القمر يتسلق التلال .

ـ لم يعد مسلّياً .

كان يخشى النظر إلى مارجوري . ثم نظر إليها . جلست هناك وظهرها إليه .

نظر إلى ظهرها .

ـ لم يعد الأمر مسلياً . لم يعد أي شيء منه مسلياً .

لم تقل شيئاً . تابع القول :

ـ أُحس كما لو أن كل شيء قد أصبح جهنمياً داخلي . أنا لا أعرف يا ماج . لا أعرف ما أقوله .

واصل النظر إلى ظهرها .

قالت مارجوري :

ـ أليس الحب مسلياً؟

قال نيك :

ـ لا .

وقفت مارجوري . كان نيك يجلس هناك ورأسه بين يديه .

صاحت مارجوري قائلة :

ـ سآخذ القارب . تستطيع السير راجعاً حول لسان البر.

قال نيك :

ـ حسناً . سأدفع القارب لك .

قالت :

ـ لا داعي لهذا .

استقرت في القارب والقارب يطفو على سطح الماء وضوء القمر ينصب عليه . رجع نيك واستلقى ووجهه في البطانية إلى جانب النار . كان يمكنه سماع مارجوري تجذف في الماء .

استلقى هناك لفترة طويلة من الزمن . كان يستلقي هناك عندما سمع بيل يدخل الأرض الفضاء ماشياً عبر الغابة . أحس بيل يقترب من النار . لم يلمسه بيل كذلك .

قال بيل :

ـ أذهبت؟

قال نيك وهو مستلق ووجهه في البطانية .

ـ نعم .

ـ هل أثارت ضجة؟

ـ لا . لم تثر ضجة .

ـ كيف حالك؟

ـ أوه . اذهب يا بيل . اذهب للحظة .

اختار بيل شطيرة من سلة الأكل واتجه إلى البحيرة ليلقي نظرة على القصبتين .

عاصفة لثلاثة أيام

كان يوماً حاراً بشكل رهيب. زَحمنا المتراس المتقن البناء والواقع في الجانب الآخر من الجسر. لم يكلّف شيئاً. فقد صُنع من مشبّك حديد مشغول نزع من مقدمة منزل. وكان أثقل مما يمكن نقله وبإمكانك إطلاق النار من خلاله وكان يجب عليهم تسلقه. كان عالياً جداً. حاولوا تسلقه فأطلقنا عليهم النار من على بعد أربعين ياردة. اندفعوا نحوه، وخرج الضباط وحدَهم محاولين إزالته. كانت عقبة متقنة الصنع تماماً. وكان ضباطهم رائعين جداً. انزعجنا شديد الإنزعاج حين سمعنا بأن جناح الجيش قد انسحب، وكان علينا أن نتقهقر.

* * *

توقف المطر حين دار نيك ليسير على الطريق الذي يجري صاعداً خلال بستان فاكهة. كانت الفواكه قد قُطفت وهبت ريح الخريف بين الأشجار العارية. توقف نيك والتقط تفاحة واجْلَر من على جانب الطريق. وهي تلمع في العشب من المطر. وضع التفاحة

في جيب معطفه الماكيناو.

خرج الطريق من البستان إلى أعلى قمة التل. وهناك كوخ بشرفة مدخل مكشوف والدخان يتصاعد من مدخنته. وفي الخلف، كان المرآب وخُم الدجاج والأشجار النامية من جديد بعد قطعها مثل سياج أمام الغابة الواقعة خلف البستان. تمايلت الأشجار الضخمة في الريح عالياً وهو يراقبها. وكانت أول عواصف الخريف. وحين عبر نيك الحقل المكشوف وراء البستان. فتح باب الكوخ وخرج بيل. وقف في شرفة المدخل ناظراً إلى الخارج.

قال:

- حسناً يا ويميدج؟

قال نيك وهو يرتقي الدرجات:

- مرحباً يا بيل.

وقفا معاً ينظران إلى الخارج عبر الريف وإلى الأسفل من فوق البستان، ووراء الطريق عبر الحقول الواطئة وغابة لسان بر البحيرة. كانت الريح تهب مباشرة إلى أسفل البحيرة. كان بمقدورهما رؤية الأمواج المتكسرة على شاطيء رأس البر «تين مايل».

قال نيك:

- إنها تهب.

قال بيل:

- ستهب على هذا النحو لثلاثة أيام.

قال نيك:

- هل أبوك في الداخل؟
- لا . إنه في الخارج مع البندقية . هيا ادخل .

دخل نيك الكوخ . كانت في المدفأة نار مشتعلة . جعلتها الريح تزأر . أغلق بيل الباب .

قال :

- أتشرب؟

مضى إلى المطبخ وعاد بكأسين ودورق ماء . تناول نيك زجاجة الويسكي من على الرف فوق المدفأة .

قال :

- حسِناً؟

قال بيل :

- حسناً .

جلسا أمام النار وشربا الويسكي الأيرلندي والماء .

قال نيك :

- لها طعم رائع مدخّن .

ونظر إلى النار من خلال الكأس .

قال بيل :

- تلك هي الفواكه المخمّرة .

قال نيك :

- لا يمكنك وضع الفاكهة المخمّرة في الشراب .

قال بيل :

ـ لن يشكل ذلك أي فرق .

قال نيك :

ـ هل رأيت فاكهة مخمرة؟

قال بيل :

ـ لا .

قال نيك :

ـ ولا أنا .

بدأ حذاؤه ، وهو يمتد مرتكزاً على إفريز المدفأة أمام النار ، ينفث بخاراً .

قال بيل :

ـ من الأفضل خلع حذائك .

ـ أنا لا ألبس جوارباً .

قال بيل :

ـ اخلعه وجففه وسأحضر لك جوارباً .

صعد إلى الطابق العلوي إلى العلّية وسمعه نيك يتنقل من مكان إلى آخر فوق رأسه . كان الطابق العلوي مفتوحاً تحت السقف حيث كان ينام بيل وأبوه وأحياناً نيك نفسه . وفي الخلف تقع غرفة تغيير الملابس . كانوا قد أعادوا نقل أسرّة السفر بعيداً عن المطر وغطوها بأغطية مطاطية .

هبط بيل ومعه زوج من الجوارب الصوفية الثقيلة .

قال :

ـ تأخر الوقت كثيراً على التنقل من مكان إلى آخر دون جوارب .

قال نيك :

ـ أكره لبسها من جديد .

سحب الجوارب وهو يلبسها وسقط إلى الخلف على كرسيه واضعاً قدميه على الساتر أمام النار .

قال بيل :

ـ ستبعج الساتر .

أدار نيك قدميه إلى أعلى إلى جانب المدفأة .

سأل :

ـ أعندك ما تقرأه؟

ـ الجريدة فقط .

ـ ماذا فعل فريق الـ «كاردز»؟ .

ـ خسروا بنقطتين أمام فريق «جيانتس» .

ـ ذلك يضمن لهم الفوز .

قال بيل :

ـ إنها هبة . طالما تمكّن سان جرو من شراء كل لاعب ماهر لهم في الرابطة فإن النتيجة لن تكون حسنة .

قال نيك :

ـ لن يستطيع شراءهم كلهم .

قال بيل :

- يستطيع شراء الذين يريد شراءهم . أو يثير سخطهم على الفريق الذي يتنمون إليه حتى يضطروا إلى الذهاب معه .

وافق نيك :

- مثل هايني زيم .
- سيقدم إليه رأس العظم ذلك الكثير من الخير.

نهض بيل واقفاً .

قال نيك :

- يمكنه الهجوم .

كانت حرارة النار تشوي رجليه .

قال بيل :

- إنه دفاع رائع أيضاً، ولكنه يخسر مباريات الكرة .

اقترح نيك قائلاً :

- ربما يكون ذلك هو ما يريده ماك جرو Mac Crrow منه .

وافق بيل :

- ربما .

قال نيك :

- هناك الكثير مما لا نعرفه دائماً .
- طبعاً . لدينا الكثير من المعلومات الأكيدة لأننا بعيدين جداً عن أرض الملعب .

ـ مثل أفضلية اختيار الحصان من بين الخيل التي لم ترها قط.

ـ ذلك هو الأمر.

انحنى بيل وتناول زجاجة الويسكي. أحاطت يده الكبيرة الزجاجة كلها. صبّ الويسكي في الكأس التي قرّبها نيك منه.

ـ كم من الماء؟

ـ كالسابق تماماً.

جلس على أرض الغرفة إلى جانب كرسي نيك.

قال نيك:

ـ يصبح الحال رائعاً حين تهب عواصف الخريف، أليس كذلك؟

ـ رائع.

قال نيك:

ـ إنها أفضل أوقات السنة.

قال بيل:

ـ ألن تكون الحياة في المدينة جحيماً؟

قال نيك:

ـ أُحب مشاهدة سلسلة العالم.

قال بيل:

ـ هي دائماً في نيويورك أو فيلادلفيا الآن. إنها لن تفيدنا في شيء.

ـ أتساءل إن كان فريق الـ «كاردز» سيفوز بلعبة تعويضية.

قال بيل :

- لا . لن يفوزوا في حياتنا .

قال نيك :

- آه . سيجن جنونهم .

- أتذكر حين سارت الأمور على ذلك المنوال في ذلك الوقت قبل تحطم القطار؟

قال نيك وهو يتذكر:

- ياه .

مد بيل يده فوق الطاولة الواقعة تحت النافذة نحو الكتاب الموضوع هناك ووجهه إلى أسفل حيث كان قد وضعه حين ذهب ليفتح الباب . أمسك بكأسه في يد والكتاب في اليد الأخرى وهويتكىء بظهره على كرسي نيك .

- ماذا تقرأ؟

- «ريتشارد فيفيريل» .

- لم أستطع الإستمرار بقراءته .

قال بيل :

- لا بأس به . إنه ليس كتاباً سيئاً يا ويميدج .

سأل نيك :

- ما الذي لديك من كتب لم أقرأها .

- أقرأت «عشاق الغابة»؟

- نعم . ذلك الذي ينام فيه البطل والبطلة كل ليلة والسيف المجرَّد

من غمده بينهما .

- إنه كتاب جيد يا ويميدج .

- إنه كتاب ممتاز . غير أن ما لم أستطع فهمه أبداً هو فائدة وضع السيف بينهما . لا بد أن يبقى وحدّه إلى أعلى لأنه إذا وضع منبسطاً فإنك تستطيع التدحرج فوقه ولن يثير متاعب .

قال بيل :

- إنه رمز .

قال نيك :

- بالتأكيد . ولكنه ليس عملياً .

- هل قرأت «الثباتَ» .

قال نيك :

- إنه رائع . ذلك كتاب حقيقي . حيث يلاحقه والده طيلة الوقت . هل لديك كتب أخرى من تأليف وولبول ؟ .

قال بيل :

- «الغابة المعتمة» . إنه عن روسيا .

سأل نيك :

- ماذا يعرف عن روسيا؟

- لا أعرف . لا تستطيع الحكم على هؤلاء الفتيان . ربما ذهب إلى هناك حين كان شاباً . لديه الكثير من المعلومات فيه .

قال نيك :

ـ أود مقابلته .

قال بيل :

ـ أود مقابلة تشيستيرتون .

قال نيك :

ـ يا ليته كان هنا الآن . كنا سنأخذه معنا لصيد السمك في فواتومورو (غابة الغد) .

قال بيل :

ـ أتساءل إن كان يحب صيد السمك .

قال نيك :

ـ بالتأكيد . لا بد أن يكون أفضل الفتيان تقريباً . أتذكر النزل الطائر؟

«إذا أعطاك ملاك خارج من السماء

شيئاً آخر لتشربه

فاشكره على نيّاته الطِيبة

ثم اذهب وصب الشراب في حوض التصريف» .

قال نيك :

ـ ذلك حق . أظن بأنه فتى أفضل من وولبول .

قال بيل :

ـ إنه فتى رائع على كل حال .

ـ ولكن وولبول كاتب أفضل منه .

قال نيك :

ـ أعرف . ولكن أعمال تشيستيرتون كلاسيكية .

قال بيل بالحاح :

ـ وأعمال وولبول كلاسيكية أيضاً .

قال نيك :

ـ ليتهما يأتيان كلاهما إلى هنا . كنا سنأخذهما لصيد السمك إلى فواتومورو (غابة الغد) .

قال بيل :

ـ لنسكر .

وافق نيك على هذا :

ـ حسناً .

قال بيل :

ـ لن يهتم والدي .

قال نيك :

ـ أمتأكّد أنت؟

قال بيل :

ـ أنا أعرف هذا .

قال نيك :

ـ أنا سكران قليلاً الآن .

قال بيل :

ـ أنت لست سكراناً .

نهض واقفاً عن الأرضية ووصل إلى زجاجة الويسكي. مد نيك كأسه. ثبّت عينيه عليه فيما كان بيل يصب.

ملأ بيل نصف الكأس بالويسكي.

قال:

- ضع ماءك. هناك جرعة واحدة أخرى فقط.

سأل نيك:

- أعندكم المزيد؟

- هناك الكثير، غير أن والدي يريدني أن أشرب مما هو مفتوح فقط.

قال نيك:

- بالتأكيد.

أوضح بيل:

- يقول والدي أن فتح القناني هو ما يجعل من الإنسان سكيراً.

قال نيك:

- ذلك صحيح.

تأثّر. لم يفكر بذلك من قبل أبداً. كان يفكر دائماً بأن شراب الإنسان وحدَه يجعل منه سكيراً.

قال باحترام:

- كيف والدك؟

قال بيل:

- إنه طيب. إنه يثور قليلاً في بعض الأحيان.

قال نيك :

- إنه فتى ممتاز .

صب ماء من الدورق في كأسه . امتزج بالويسكي ببطء . كان هناك ويسكي أكثر من الماء .

قال بيل :

- أتراهن بحياتك بأنه كذلك؟

قال نيك :

- إن أبي رجل طيب .

قال بيل :

- أنت على حق تماماً، إنه رجل طيب .

قال نيك كما لو كان يقرر حقيقة علمية :

- يدّعي بأنه لم يتناول شراباً في حياته .

- حسناً، فهو طبيب . والدي رسام . ذلك هو الفرق .

قال نيك بحزن :

- لقد أضاع الكثير .

قال بيل :

- لا تعرف . لكل شيء ما يعوضه .

اعترف نيك :

- قال هو نفسه أضاع الكثير .

قال بيل :

- ووالدي مرَّ بوقت عصيب .

قال نيك :

ـ كل الأمور توازن بعضها .

جلسا ينظران إلى النار ويفكران بهذه الحقيقة العميقة .

قال نيك :

ـ سأحضر قطعة حطب من شرفة المدخل الخلفي .

لاحظ وهو ينظر إلى النار بأن النار كانت تخمد . وأراد أن يبين كذلك بأنه يمكنه احتمال شرابه ويكون عملياً . حتى ولو لم يشرب أبوه قطرة من الشراب فإن بيل لن يسكره قبل أن يسكر هو نفسه .

قال بيل :

ـ أحضر قطعة كبيرة من خشب الزان .

أصبح هو الآخر عملياً بوعي .

دخل نيك من المطبخ وهو يحمل زند خشب . وفيما هو يمر بطاولة المطبخ خَبَط مقلاة وأسقطها عن الطاولة . وضع قطعة الحطب على الأرضية والتقط المقلاة . كانت تحتوي على مشمش مجفف منقوع في الماء . وجمع بعناية كل حبات المشمش عن الأرضية ، وكان بعضها قد سقطت تحت الفرن ، أعاد وضعها في المقلاة . غرف بعض الماء وصبّه عليها من دلو إلى جانب الطاولة . أحس بالإعتزاز الشديد بنفسه . لقد كان عملياً دقيقاً .

دخل وهو يحمل زند الخشب فنهض بيل واقفاً من عن الكرسي وساعده على وضع الحطب في النار .

قال نيك :

ـ ذلك زند خشب ممتاز جداً .

قال بيل :

ـ كنت أُوفرها للطقس السيء . زند كهذا يشتعل طيلة الليل .

قال نيك :

ـ سيبقى فحم لإشعال النار في الصباح .

وافق بيل على قوله :

ـ ذلك صحيح .

كانا يديران الحديث على مستوى عالٍ .

قال نيك :

ـ لنشرب جرعة أُخرى .

قال بيل :

ـ أظن بأن هناك قنينة أُخرى مفتوحة في الخزانة .

ركع على ركبتيه في ركن الغرفة أمام الخزانة وأخرج زجاجة مربعة الوجه .

قال :

ـ إنها اسكتلندية .

قال نيك :

ـ سأحضر المزيد من الماء .

خرج متجهاً إلى المطبخ ثانية . ملأ الدورق بالمغرفة ، غارفاً ماء

نبع بارد من الدلو. وفيما هو في طريق العودة إلى غرفة الجلوس، مر أمام مرآة غرفة الطعام ونظر إليها. بدا وجهه غريباً. ابتسم لوجهه في المرآة ورد عليه وجهه بابتسامة عريضة. غمز بعينيه له وتابع سيره. لم يكن وجهه، غير أن هذا لم يشكل أي فريق.

كان بيل قد صب الشراب في الكأسين.

قال نيك:

- إنها جرعة كبيرة رهيبة.

قال بيل:

- ليس بالنسبة لنا يا ويميدج.

سأل نيك وهو يرفع كأسه:

- نخب من سنشرب؟

قال بيل:

- لنشرب نخب صيد الأسماك.

قال نيك:

- ليكن. أيها السادة، نخب صيد السمك.

قال بيل:

- كل أنواع صيد السمك، وفي كل مكان.

قال نيك:

- صيد السمك. ذلك ما نشرب نخبه.

قال بيل:

- إنه أفضل من البيسبول.

قال نيك:

ـ ليس هناك أي وجه شبه . كيف بدأنا بالكلام عن البيسبول؟

قال بيل :

كانت غلطة . فالبيسبول لعبة للأجلاف .

شربا كل ما كان في كأسيهما .

ـ لنشرب الآن نخب تشيستيرتون .

وتدخل نيك :

ـ ولبول

صب نيك الشراب . صب بيل الماء فيه . نظرا إلى بعضهما البعض . فشعرا بالبهجة الشديدة .

قال بيل :

ـ أيها السادة . نخب تشيستيرتون وولبول .

قال نيك :

ـ بالضبط أيها السادة .

شربا . ملأ بيل الكأسين . جلسا في الكرسيين الكبيرين أمام النار .

قال بيل :

ـ كنت حكيماً جداً يا ويميدج .

سأل نيك :

ـ ماذا تعني؟

قال بيل :

ـ انهاؤك مشكلة مارج تلك .

قال نيك :

- أظن هذا.

- كان التصرف الوحيد الذي وجب عليك القيام به. لو لم تفعل ذلك، كنت الآن تعود إلى البيت، في مثل هذا الوقت، مشتغلاً لكسب ما يكفي من مال لتتزوج.

لم يقل نيك شيئاً.

تابع قوله:

- حالما يتزوج الرجل، يفسد تماماً. ولن يكون لديه شيء آخر. لا شيء. لا شيء أبداً. ويكون قد انتهى تماماً. رأيت الفتيان الذين تزوجوا.

لم يقل نيك شيئاً.

قال بيل:

- يمكنك تمييزهم من بين الآخرين. عليهم هذا النوع من نظرة المتزوجين السمان.

إنهم قد انتهوا.

قال نيك:

- بالتأكيد.

قال بيل:

- قد يكون قطع علاقتك بها أمراً سيئاً. ولكنك ستلتقي بفتاة أُخرى، ثم تسير الأمور سيراً حسناً. قابلهن ولكن لا تدعهن يحطمنك.

قال نيك:

- نعم .

- لو تزوجتها لكان عليك أن تتزوج كل أفراد العائلة . تذكر امها وذلك الفتى الذي تزوجته .

أومأ نيك برأسه .

- تصورهم يحومون حول بيتك طيلة الوقت والذهاب إليهم في بيتهم لتناول غداء يوم الأحد، واستقبالك لهم لتناول العشاء عندك وأمها تشير على مارج طيلة الوقت بما عليها أن تفعل وكيف عليها أن تتصرف .

جلس نيك هادئاً .

قال بيل :

- خرجت منها مثل الشعرة من العجين . تستطيع الآن تزوج شخص من صنفها وتستقر معه وتسعد به . لا تستطيع خلط الزيت بالماء كما لاتستطيع خلط ذلك النوع من الأشياء أكثر مني لو تزوجت أنا من ايدا التي تعمل لشركة ستراتونز . ربما تحب هي هذا، أيضاً .

لم يقل نيك شيئاً . طارت السكرة من رأسه وتركته وحيداً . لم يكن بيل هناك . ولم يكن يجلس أمام النار أو أنه سيذهب لصيد السمك غداً مع بيل وأبيه أو أي شيء آخر . ولم يكن سكراناً . اختفى كل هذا . كل ما عرفه هو أن مارجوري كانت له في يوم ما وبأنه فقدها . لقد ذهبت وهو الذي أبعدها . ذلك كل ما كان يهم من الأمر . قد لا يراها مرة أُخرى أبداً . ربما لن يراها . كل هذا اختفى، انتهى .

قال نيك :

ـ لنشرب كأساً أُخرى .

صب بيل من الزجاجة . رش في الكأس قليلاً من الماء .

قال بيل :

ـ لو سرت على ذلك الطريق ، لما كنا هنا الآن .

كان ذلك صحيحاً . كان خطته الأصلية الذهاب إلى بلدته والحصول على عمل . ثم خطط أن يبقى في تشارليفوا طيلة الشتاء حتى يبقى قرب مارج . والآن ، لا يدري ما سيفعله .

قال بيل :

ـ وربما كنا لن نذهب إلى صيد السمك غداً . كانت لديك الشجاعة الكافية لتقوم بما قمت به خير قيام .

قال نيك :

ـ لم أستطع منع نفسي .

قال بيل :

ـ أعرف . تلك هي الطريقة التي تسير عليها الأمور .

قال نيك :

ـ فجأة ، انتهى كل شيء . لا أدري لماذا . لم أستطع منع نفسي . تماماً مثلما تهب عواصف الثلاثة أيام الآن وتنزع كل أوراق الأشجار .

قال بيل :

ـ حسناً . انتهى الأمر ، تلك هي النقطة الأساسية .

قال نيك :

ـ كانت غلطتي أنا .

قال بيل :

ـ لن يشكل أي فرق معرفتنا غلطة مَنْ كانت .

قال نيك :

ـ نعم . هذا ما أظنه .

كان الأمر المهم هو أن مارجوري قد اختفت، وبأنه قد لا يراها أبداً ثانية . تحدث إليها عن ذهابهما إلى إيطاليا في المستقبل وعن الوقت الممتع الذي سيقضيانه هناك، والأماكن التي سيزورانها معاً . كل هذا ولّى الآن .

قال بيل :

ـ ما دام الأمر قد انتهى فذلك ما يهم . أعلمك يا ويميدج بأنني كنت قلقاً حين كانت علاقتك بها قائمة . لقد لعبت دورك باتقان . عرفت بأن أُمها قد اغتاظت كالجحيم . لقد أخبرتْ الكثير من الناس بأنكما كنتما مخطوبين .

قال نيك :

ـ لم نكن مخطوبين .

ـ انتشرت الإشاعة في كل مكان بأنكما كنتما مخطوبين .

قال نيك :

ـ لم أستطع منع هذا . لم نكن مخطوبين .

قال بيل :

- ألم تنويا الزواج؟

قال نيك :

- نعم . ولكننا لم نكن مخطوبين .

قال بيل بلهجة قضائية :

- ما الفرق؟

- لا أدري . ولكن هناك فرق .

قال بيل :

- حسناً . لنسكر .

قال بيل :

- حسناً . لنسكر تماماً .

قال نيك :

- لنسكر ثم نمضي للسباحة .

شربا ما بالكأسين حتى الثمالة .

قال :

- أنا شديد الأسف من أجلها ولكنني لا أعرف ما يمكنني فعله؟ أنت تعرف طبيعة امها .

قال بيل :

- كانت رهيبة .

قال نيك :

- فجأة، انتهى كل شيء . يجب أن لا أتحدث عن هذا .

قال بيل :

ـ لا، ليس من المفروض أن تتكلم عنه. تكلمتُ عنه وانتهيتُ منه الآن. لن نتكلم عنه مرة أُخرى أبداً. أنت لا تريد التفكير به. قد تعود إليه مرة أُخرى.

لم يفكر نيك بذلك. بدا له بأنه مطلق التجريد. وكانت تلك فكرة. جعله ذلك يحس بأنه تحسّن.

قال:

ـ بالتأكيد. هناك دائماً ذلك الخطر.

أحس بالسعادة الآن. ليس هناك أي شيء لا يمكن التخلص منه. قد يذهب إلى المدينة ليلة السبت. غداً يوم الخميس.

قال:

ـ هناك دائماً فرصة.

قال بيل:

ـ عليك مراقبة نفسك.

قال:

ـ سأُراقب نفسي.

شعر بالسعادة. لم ينته أي شيء. ولم يَضِعْ أي شيء أبداً. سيذهب إلى المدينة يوم السبت. أحس نفسه أكثر ارتياحاً، كما أحس قبل أن يبدأ بيل بالكلام عنه. هناك دائماً مخرج لكل مشكلة.

قال نيك:

ـ لتأخذ البندقيتين ونذهب إلى رأس البر لنبحث عن أبيك.

ـ حسناً .

انـزل بيل بندقيتيّ الـرش عن رف الحائـط. فتـح صنـدوق الخراطيش، ارتدى نيك معطفه الماكيناو وحذاءه. كان حذاؤه متيّبساً من التجفيف. كان لا يزال سكراناً تماماً ولكن رأسه كان صافياً.

سأل نيك :

ـ كيف حالك؟

ـ هائل . كنت منفعلاً تماماً .

كان بيل يزرر معرقه .

ـ لا فائدة من السكر.

ـ لا . علينا أن نخرج .

خطيا خارجين من الباب . هبّت ريح عاصفة هوجاء .

قال نيك :

ـ ستحط الطيور على العشب في طقس كهذا .

هبطا متجهين نحو البستان .

قال بيل :

ـ رأيت دجاجة أرض هذا الصباح .

قال نيك :

ـ قد نتمكن من مفاجأتها بالهجوم .

قال بيل :

ـ لن نستطيع إطلاق النار في هذا الريح .

في الخارج، لم تعد مشكلة مارج مأساوية الآن. لم تعد حتى

مهمة . تذرو الريح كل مشكلة كتلك بعيداً .

قال نيك :

ـ إنها تهب قادمة من البحيرة الكبيرة .

ومع صوت الريح سمعا صوت طلقة نارية .

قال بيل :

ـ هذا هو أبي . إنه أسفل في المستنقع .

قال نيك :

ـ لنهبط تلك الطريق .

قال بيل :

ـ لنعبر خلال المرجة السفلى ولنر إذا كنا سنفاجىء شيئاً .

قال نيك :

ـ ليكن .

لم يعد أي شيء منه مهم الآن . ذرته الريح من رأسه . لا يزال يستطيع أن يذهب إلى المدينة في ليلة السبت . إنه لأمر جيد أن يكون لديك شيء كاحتياط.

الملاكم

أعدموا وزراء مجلس الوزراء الستة رمياً بالرصاص في الساعة السادسة والنصف صباحاً أمام حائط مستشفى. تجمعت برك ماء في الساحة. وتناثرت أوراق شجر ميتة مبللة على رصيف الساحة. وانهمر المطر غزيراً. كانت كل مصاريع نوافذ المستشفى مغلقة بالمسامير. وكان أحد الوزراء مريضاً بالتيفوئيد. حمله جنديان إلى الطابق السفلي وأخرجاه إلى المطر. حاولا إسناده على الحائط ولكنه سقط وجلس في بركة ماء. وقف الخمسة الآخرون بهدوء مستندين على الحائط. وأخيراً، قال الضابط للجنديين بأن من غير المجدي محاولة حمله على الوقوف. عندما أطلقوا أول دفعة من الرصاص كان يجلس في الماء ورأسه على ركبتيه.

* * *

نهض نيك واقفاً. كان في حالة حسنة. رفع نظره إلى الدرب على ضوء الحافلة الأخيرة للقطار الذي اختفى عن الأنظار بدورانه حول المنحنى. تجمع ماء على كلا جانبي خط سكة الحديد ثم امتد مستنقع أشجار الطراق أمامه.

تحسس ركبتيه، كان بنطاله قد تمزّق وسلخ جلده، كشفت يداه وتجمع تراب ورماد تحت أظافره. اقترب من حافة خط السكة نحو المنحدر الصغير إلى الماء وغسل يديه. غسلهما بعناية في الماء البارد مزيلاً الأوساخ من تحت الأظافر. جلس القرفصاء وغسل ركبتيه.

يا لعامل المكابح(*) القذر. سيريه في يوم ما. سيعرفه ثانية. تلك كانت طريقة رائعة يتصرف حسبها.

قال:

- تعال إلى هنا أيها الفتى. لدي شيء لك.

لقد سقط بسبب هذا، يا له من عمل صبياني قذر يقوم به. لن يخدعوه مرة أُخرى بهذه الطريقة.

- تعال إلى هنا أيها الفتى. لدي شيء لك.

ثم طبْ، حَطّ بيديه وركبتيه على جانب خط سكة الحديد.

فرك نيك عينه. هناك كدمة كبيرة تنتفخ. لا بد أن عينه اسودّت تماماً. إنها تؤلمه. ابن القحبة عامل المكابح ذلك.

لمس الورم فوق عينه بأصابعه. أوه. حسناً، انتهى الأمر بعين سوداء فقط. هذا كل ما أصابه من ذلك. ثمن رخيص. ود لو أمكنه رؤية ورم عينه، لكنه لم يستطع رؤيتها حين نظر إلى الماء. كان الوقت ظلاماً وكان بعيداً عن أي مكان مأهول. مسح يديه على بنطاله

(*) المكابح: الفرامل.

ووقف ثم صعد إلى رصفة سكة الحديد متجهاً إلى القضبان.

انطلق على خط السكة. كان مرصوفاً رصفاً جيداً سهّل المشي عليه وقد دك الرمل والحصى بين قضبان الربط، مما جعله صلباً وصالحاً للمشي عليه. وامتدت فرشة الطريق الناعمة مثل ممر يندفع إلى الأمام عبر المستنقع. تابع نيك السير. عليه أن يصل إلى مكان ما.

قذف نيك بنفسه داخل قطار شحن حين أبطأ ليدخل ساحات القطارات خارج تقاطع وولتون. مر القطار ونيك داخله، عبر كالكاسكا حين بدأ الظلام يخيم. لا بد أنه قد وصل الآن إلى مانسيلونا تقريباً. ثلاثة أو أربعة أميال من أرض مستنقع. سار على الخط ماشياً بطريقة تبقيه على الرصفة بين قضبان الربط، والمستنقع يلوح كشبح من الضباب المتصاعد. آلمته عينه وأحسّ بالجوع. واصل المشي مخلفاً أميالاً من خط سكة الحديد وراءه. كان المستنقع كما هو على كلا جانبي الخط.

أمامه، انتصب جسر. عبره نيك وجزمته تطنّ طنيناً أجوف على الحديد، وفي الأسفل، بدا الماء أسود بين شقوق قضبان الشريط. رَكل نيك برجله عموداً مفكوكاً من أعمدة السياج فسقط في الماء. ووراء الجسر ارتفعت تلال عالية ومظلمة على كلا جانبي خط سكة الحديد. وعلى الممر أمامه رأى نيك ناراً.

إقترب من النار حذراً وهو يسير على الممر. كانت تشتعل على بعد من أحد جانبي الممر، تحت رصفة سكة الحديد. رأى الضوء

المنبعث منها فقط. خرج الممر عبر أرض مقطوعة الأشجار وكانت المنطقة التي تشتعل فيها النار مكشوفة وتختفي في غابة. هبط نيك بحذر عن رصفة سكة الحديد ودخل إلى الغابة ليقترب من النار من بين الأشجار. كانت غابة من أشجار الزان وتناثرت أغلفة ثمار خشب الزان تحت جزمته فيما هو يمشي بين الأشجار. كانت النار متألقة الآن عند حافة الأشجار تماماً. كان هناك رجل يجلس إلى جانب النار. انتظر نيك هناك ورأسه بين الشجرة وراقب. بدا بأن الرجل وحيد. كان يجلس هناك ورأسه بين يديه ناظراً إلى النار. خطا نيك خارجاً واقترب من ضوء النار.

جلس الرجل هناك ينظر في النار. حين وقف نيك لصقه تماماً لم يتحرك.

قال نيك:

- مرحباً.

رفع الرجل نظره.

قال:

- من أين أُصبت بالكدمة في عينك؟

- عامل المكابح لكمني.

- دفعك من قطار الشحن المار من هنا؟

- نعم.

قال الرجل:

- رأيت ابن الحرام. مر من هنا قبل حوالي الساعة والنصف. كان يسير على قمة العربات يصفق بيديه ويغني.

ـ النغل .

قال الرجل بجد :

ـ لا بد أن لكمه لك أدخل السرور إلى نفسه .

ـ سألكمه .

قال الرجل مقدماً نصيحة له :

ـ اقذفه بحجر حين يمر .

ـ سأمسك به .

ـ أنت ولد خشن ، أليس كذلك؟

قال نيك :

ـ لا .

ـ كل الفتيان خشنون .

قال نيك :

ـ يجب أن تكون خشناً .

ـ هذا ما قلته .

نظر الرجل إلى نيك وابتسم . وعلى ضوء النار ، رأى نيك وجه الرجل مشوّهاً . كان أنفه غائراً وعيناه مشقوقتين وكانت له شفتان غريبتا الشكل . لم يدرك نيك سبب هذا في الحال ، رأى فقط بأن وجه الرجل كان غريب الشكل ومشوهاً . كان مثل معجون بالألوان . نظرة ميتة في ضوء النار .

سأل الرجل :

ـ لم يعجبك وجهي؟

أحس نيك بالحرج .

قال :

ـ بالتأكيد .

خلع الرجل قبعته .

ـ انظر .

كانت له اذن واحدة . غليظة وملتصقة تماماً على جانب رأسه . وفي المكان الذي كان يجب أن تكون فيه اذن أُخرى ، كانت تستقر جدعة .

ـ أرأيت رجلاً مثل هذا من قبل ؟

قال نيك :

ـ لا .

أثار فيه غثياناً طفيفاً .

قال الرجل :

ـ يمكنني تحمل هذا . ألا تظن بأنني يمكنني تحمل هذا يا فتى ؟

ـ بالتأكيد .

قال الرجل الضئيل :

ـ كلهم حطموا أيديهم عليّ . لم يستطيعوا إيذائي .

نظر إلى نيك وقال :

ـ اجلس . أتريد أن تأكل ؟

قال نيك :

ـ لا تزعج نفسك . سأتابع طريقي إلى المدينة .

قال الرجل :

- اسمع نادني آد .
- بالتأكيد .

قال الرجل الضئيل :

- اسمع . أنا لست في حالة حسنة .
- ما بك؟
- أنا مخبول .

اعتمر قبعته . أحس نيك برغبة في الضحك .

قال :

- أنتَ بخير .
- لا . لستُ كذلك . أنا مخبول . اسمع . هل كنتَ مخبولاً في يوم من الأيام؟

قال نيك :

- لا . كيف أصبت بهذا؟

قال آد :

- لا أدري . حين تصاب به لا تعرف . أنت تعرفني، أليس كذلك؟
- لا .
- أنا آد فرانسيس .
- أحقاً؟
- ألا تصدق هذا؟
- نعم .

عرف نيك بأنه لا بد أن يكون هذا صحيحاً.

أتعرف كيف كُنتُ أهزمهم؟

قال نيك:

- لا.

- إن قلبي بطيء. إنه ينبض أربعين نبضة في الدقيقة. جسه.

تردد نيك.

- تقدّم.

أمسك الرجل بيده.

- تعال أمسك برسغي. ضع أصابعك هناك.

كان معصم الرجل الضئيل سميكاً والعضلات بارزة فوق العظم. أحس نيك بالنبض البطيء تحت أصابعه.

- ألديك ساعة يد؟

- لا.

قال آد:

- ولا أنا. لا فائدة إذا لم يكن لديك ساعة يد.

أفلت نيك رسغه.

قال آد فرانسيس:

- اسمع. امسك ثانية. أنت تعد وأنا أعد إلى الستين.

بدأ نيك يعد وهو يحس بالخفق الثقيل البطيء تحت أصابعه.

سمع الرجل الضئيل يعد ببطء واحد اثنين ثلاث أربع خمس وتابع بصوت عال .

أنهى آد العد :

ـ ستون . هذه دقيقة . كم عددت؟

قال نيك :

ـ أربعين .

قال آد بسعادة :

ـ هذا صحيح . لا يسرع أكثر من هذا .

هبط رجل من عن رصفة سكة الحديد وتقدم عبر الأرض الفضاء إلى النار .

قال آد :

ـ مرحباً يا باغز Bags .

أجاب باغز :

ـ مرحباً .

كان صوت زنجي . عرف نيك من طريقة مشيته بأنه زنجي . وقف وقد أدار ظهره إليهما منحنياً فوق النار . اعتدل .

قال آد :

ـ هذا صديقي باغز . هو مخبول أيضاً .

قال باغز :

ـ تسرني رؤيتك . من أين قلت بأنك أتيت؟

قال نيك :

- تشيكاغو.

قال الزنجي:

- إنها مدينة رائعة. لم أسمع اسمك.
- آدامز. نيك آدامز.

قاد آد:

- يقول بأنه لم يصب بالخبل أبداً يا باغز.

قال الزنجي:

- سيصاب بالكثير منه في المستقبل.

كان يحل ربطة وهو إلى جانب النار.

سأل الملاكم المحترف:

- متى سنأكل يا باغز.
- الآن.
- هل أنت جائع يا نيك؟
- جائع كالجحيم.
- أسمعت هذا يا باغز؟
- اسمع أغلب ما يجري.
- ليس هذا ما سألتك عنه.
- نعم. سمعت ما قاله السيد.

وضع في المقلاة شرائح فخذ الخنزير. وحالما سخنت المقلاة فرقع الشحم وقلّب باغز فخذ الخنزير في المقلاة وكسر بيضاً في المقلاة مقلّباً اياه من جانب إلى آخر حتى يطرى البيض بالشحم الساخن فيما كان مقرفصاً على رجليه الزنجيتين الطويلتين فوق النار.

قال باغز وهو يدير وجهه عن النار:

- هلا قطعت بعض الخبز من ذلك الكيس يا سيد آدامز.

- بالتأكيد.

اقترب نيك من الكيس وأخرج رغيف خبز. قطع ست شرائح. راقبه آد ومال إلى الأمام.

قال:

- دعني آخذ سكينك يا نيك.

قال الزنجي:

- لا. لن تأخذها. تمسّك بسكينك يا سيد آدمز.

تراجع الملاكم المحترف وجلس.

سأل باغز:

- هلا أعطيتني الخبز يا سيد نيك؟

أعطاه نيك الخبز.

سأل الزنجي:

- أتحب غمس خبزتك بدهن فخذ الخنزير؟

- نعم.

- ربما يحسن الإنتظار إلى وقت متأخر. يحسن أن يكون هذا عند نهاية الوجبة. خذ.

أمسك الزنجي بشريحة من فخذ الخنزير ووضعها على إحدى قطع الخبز ثم زلق بيضة فوقها.

ـ أطبق الشطيرة من فضلك واعطها للسيد فرانسيس .

أخذ آد الشطيرة وبدأ يأكل .

حذره الزنجي :

ـ انتبه فالبيض سيسقط من الشطيرة . هذه لك يا سيد آدمز . والباقي لي .

عضّ نيك من الشطيرة . كان الزنجي يجلس قبالته وإلى جانب آد . كان مذاق فخذ الخنزير المقليّ الساخن مدهشاً .

قال الزنجي :

ـ إن السيد آدامز جائع حقاً .

بقي الرجل الضئيل الذي عرفه بالإسم كبطل ملاكمة سابق صامتاً . لم يقل شيئاً منذ تكلم الزنجي عن السكين .

سأل باغز :

ـ هل أُقدّم إليك شريحة من الخبز المغموس في دهن فخذ الخنزير الساخن؟

ـ شكراً جزيلاً .

نظر الرجل الضئيل الأبيض إلى نيك .

ـ هل تتناول بعضها يا سيد أدولف فرانسيس؟

وعرض باغز عليه بعض الدهن من المقلاة .

لم يُجِبْ آد . كان ينظر إلى نيك .

ـ سيد فرانسيس .

أتاهما صوت الزنجي الرقيق .

ولم يجب آد . كان ينظر إلى نيك .

ـ أنا أتكلم إليك يا سيد فرانسيس .

واصل آد النظر إلى نيك . وأنزل قبعته إلى أسفل فوق عينيه . وأحس نيك بالقلق .

وصل صوته من تحت القبعة حاداً إلى نيك :

ـ كيف بحق الجحيم تتصرف بتلك الطريقة؟ من تتصور نفسك بحق الجحيم؟ أنت ابن حرام سيّال الأنف . أنت تأتي إلى هنا دون أن يطلب منك أحد الحضور وتأكل طعام رجل وحين يطلب منك هذا الرجل إعارته سكيناً تشمخ بأنفك .

حملق في نيك وقد ابيضّ وجهه وكادت عيناه تحتجبان تحت القبعة .

ـ أنت هُزءة . من بحق الجحيم طلب منك التطفل علينا هنا؟

ـ لا أحد .

ـ أنت على حق لعين بأن أحداً لم يدعك . ولم يطلب منك أحد البقاء أيضاً . تأتي إلى هنا . وتتصرف باستعلاء أمام وجهي وتدخن سيجاراً وتشرب خمري ثم تتكلم بلهجة متعالية . من أين تظن نفسك قد خرجت بحق الجحيم؟

لم يقل نيك شيئاً . نهض آد واقفاً :

ـ سأقول لك، يا ابن الحرام الأصفر الكبير التشيكاغوي . ستُنزع أحشاؤك . أفهمت هذا؟

خطا نيك متراجعاً. تقدم الرجل الضئيل منه ببطء وهو يخطو بقدم مفلطحة إلى الأمام. قدمه اليسرى تخطو إلى الأمام ويجر يمناه لتلحق بها.

حرك رأسه:

- اضربني. حاول واضربني.

- لا أُريد ضربك.

- لن تتخلص من هذا بتلك الطريقة. ستتلقى ضرباً، أنظر؟ تقدم واهجم عليّ.

قال نيك:

- كفّ عن هذا.

- حسناً إذاً يا ابن الحرام.

نظر الرجل الضئيل إلى الأسفل إلى قدميّ نيك. وفيما كان ينظر إلى أسفل، استعد الزنجي الذي تبعه حين ابتعد عن النار، وضربه على قاعدة جمجمته. سقط إلى الأمام وأسقط باغز الهراوة الملفوفة بالقماش على العشب. تمدد الرجل الضئيل هناك ووجهه في العشب. رفعه الزنجي ورأسه يتدلى وحمله نحو النار. بدا وجهه سيئاً وعيناه مفتوحتين. مدّده باغز على الأرض بلطف.

قال:

- هلا أحضرت الماء من الدلو يا سيد آدامز؟ أخشى أن أكون قد ضربته بقوة أشد قليلاً.

رشّ الزنجي الماء بيده على وجه الرجل وشدّ اذنه بلطف. أغمضت العينان. نهض باغز واقفاً:

قال:

- إنه في حالة جيدة. لا يوجد ما يقلق. أنا آسف يا سيد آدامز.
- حسناً.

نظر نيك إلى الأسفل إلى الرجل الضئيل. رأى الهراوة على العشب والتقطها. كان لها مقبض مرن وكانت لدنة في يده. كانت مصنوعة من جلد أسود مهتريء ومنديل يلتف حول النهاية الثقيلة.

ابتسم الزنجي:

- إنه مقبض من عظام الحيتان. لم يعودوا يصنعون مثلها. ولم أعرف كيف كان يمكنك الدفاع عن نفسك، وعلى أي حال، لم أكن أُريدك أن تؤذيه أو تدمغه بعلامة أُخرى إضافة إلى ما لديه.

ابتسم الزنجي مرة أُخرى:

- لقد آذيته أنت نفسك.
- أعرف كيف أفعل هذا. لن يتذكر شيئاً مما جرى. كان يجب أن أفعل هذا لأعيده إلى صوابه حين يصل إلى تلك الحالة.

كان نيك لا يزال ينظر إلى الأسفل إلى الرجل الضئيل المتمدّد على الأرض وقد أغمضت عيناه في ضوء النار. وضع باغز بعض الخشب على النار.

- لا تقلق عليه يا سيد آدامز. لقد رأيته على مثل هذا الحال مرات عديدة من قبل.

سأل نيك :

- ما الذي جعله مخبولاً؟

أجاب الزنجي وهو يرقب من النار :

- أوه . أمورٌ كثيرة . أتريد تناول فنجان من هذه القهوة يا سيد آدامز؟

ناول نيك الفنجان وسوّى المعطف الذي وضعه تحت رأس الرجل الفاقد الوعي .

قال الزنجي وهو يرشف القهوة :

- لقد تلقى ضربات أكثر مما يحتملها إنسان وأثّر هذا على عقله . في ذلك الوقت، كانت أُخته مديرة أعماله . وكتبت الكثير في الصحف عن الإخوان والأخوات وكيف كانت تحب أخاها وكان يحب أُخته، ثم تزوجا في نيويورك وأثار ذلك الكثير من المنغصات .

- سأذكر هذا .

- بالتأكيد . من الطبيعي أنهما لم يعودا أخاً وأُختاً أكثر من كون الأرانب كذلك، ولم يرضَ كثير من الناس عن هذا، وبدأ الخلاف يدب بينهما، وفي يوم ما خرجت ولم تعد أبداً .

شرب القهوة ومسح شفتيه براحة يده القرنفلية اللون .

- أصبح مخبولاً تماماً . أتريد المزيد من القهوة يا سيد آدامز؟

- شكراً .

استطرد الزنجي :

- لقد رأيتها مرتين . لقد كانت امرأة جميلة جداً . كانت تشبهه لدرجة

أنهما كانا يبدوان كتوأمين. لن يكون قبيح الشكل دون وجهه الذي تملأه اللكمات.

توقف. بدا بأن القصة قد انتهت.

سأل نيك:

- أين قابلته؟

قال الزنجي:

- قابلته في السجن. كان يلكم الناس طيلة الوقت بعد أن هجَرَتْه فألقوا به في السجن. كنت قد دخلت السجن لطعن رجل بالسكين.

ابتسم وتابع كلامه بصوت رقيق:

- منذ البداية تماماً، ملت إليه، وحين خرجت من السجن، زرته. ويسره أن يظن بأنني مخبول وأنا لا يهمني هذا أبداً. أُحب أن أبقى معه وأُحب مشاهدة الريف، كما وأن هذا يمنعني من اقتراف جريمة إشعال النيران. إنني أُحب العيش كرجل من السادة.

سأل نيك:

- ماذا يفعل كلاكما؟

- أوه. لا شيء. فقط نتنقل من مكان إلى آخر. فلديه نقود.

- لا بد أنه كسب الكثير من المال.

- بالتأكيد. غير أنه أنفق كل نقوده. أو أنهم أخذوها منه. إنها ترسل إليه مالاً.

حرّك النار .

قال :

ـ إنها امرأة قديرة جداً . إنها تشبهه كأنها توأمه .

نظر الزنجي إلى الرجل الضئيل وهو ممدد على الأرض ويتنفس بصعوبة . كان شعره قد سقط على جبهته . وبدا وجهه المشوّه طفلياً وهو في حالة استرخاء .

ـ أستطيع إيقاظه في أي وقت الآن يا سيد آدامز . إذا لم يكن لديك مانع ، أُريدك أن تغادر بطريقة ما . لا أُحب أن أكون عديم الكياسة ، غير أنه قد ينزعج ثانية حين يراك . أكره أن أضربه ، فهذه هي الطريقة الوحيدة لايقافه حين يبدأ . يجب أن أبقيه بعيداً عن الناس . هذا لن يزعجك ، أليس كذلك يا سيد آدامز؟ لا . لا تشكرني يا سيد آدامز . كان علي أن أُحذرك منه غير أنه بدا وكأنه يكنّ إليك قليلاً من الود ظننت أن الأمور كانت تسير على ما يرام . ستجد مدينة صغيرة على بعد ميلين من خط السكة يدعونها مانسيلونا . مع السلامة . وددت لو كان بإمكاننا دعوتك للبقاء ليلاً ولكن الأمر مستحيل . أتريد أخذ بعض لحم الخنزير وبعض الخبز معك؟ لا؟ من الأفضل أن تأخذ شطيرة معك .

قال كل هذا بصوت زنجي خفيض رقيق مؤدب .

ـ حسناً . مع السلامة يا سيد آدامز . مع السلامة وحظاً سعيداً .

سار نيك مبتعداً عن النار عبر الأرض الفضاء إلى خط سكة الحديد . وبعيداً عن مدى النار ، أصغى . كان صوت الزنجي

الخفيض الرقيق يتكلم . لم يستطع نيك سماع الكلمات . ثم سمع الصوت الضئيل يقول :

- أحس بصداع رهيب يا باغز.

طمأنه صوت الزنجي :

- ستتحسن حالك يا سيد فرانسيس . اشرب فنجان القهوة الساخنة هذا . صعد نيك إلى رصفة سكة الحديد وانطلق ماشياً على خط سكة الحديد . اكتشف بأنه يحمل شطيرة لحم فخذ خنزير في يده فوضعها في جيبه .

وحين التفت ناظراً إلى الخلف من المنحدر الصاعد قبل أن ينحني خط السكة إلى التلال ، رأى ضوء النار في الأرض الفضاء .

قصة قصيرة جداً

جلس نيك وظهره إلى حائط الكنيسة حيث جروه ليبعدوه عن مدى نيران الرشاش في الشارع. برزت كلتا ساقيْة على نحو بشع. كان قد أُصيب في عموده الفقري. وكان العرق يتصبب على وجهه وقد لطخته الأقذار. لمعت الشمس على وجهه. كان نهاراً حاراً جداً. تمدد رينالدي العريض الكتفين وقد تناثرت مُعداته ووجهه منكفيء إلى الأسفل على الجدار. ونظر نيك إلى الأمام مشرق الوجه. كان جدار البيت الوردي أمامه قد سقط منفصلاً عن السطح وتدلى هيكل سرير حديدي ملتوٍ نحو الشارع. تمدد نمساويان ميتان بين قطع حجارة تحت ظل المنزل. وفي أعلى الشارع تمدد موتى آخرون. وسارت الأمور سيراً طبيعياً في المدينة. كانت تسير سيراً حسناً. كان حاملو النقالات سيحضرون في أي وقت الآن. أدار نيك رأسه بحذر ونظر إلى رينالدي: «سينتا رينالدي. سينتا. لقد توصلنا أنا وأنت إلى سلام منفرد». وتمدد رينالدي هامد الحركة تحت الشمس وهو يتنفس بصعوبة «لسنا وطنيين». أشاح نيك برأسه بحذر وهو يبتسم والعرق يتصبب منه. لقد كان رينالدي جمهوراً مخيباً للآمال.

في مساء يوم شديد الحرارة في بادوا حملوه صاعدين إلى السطح ومن هناك استطاع أن يطل من أعلى إلى المدينة. تطايرت هبات خارجة من المداخن بخفةفي السماء. وبعد فترة من الزمن، خيّم الظلام وظهرت الأنوار الكشافة. هبط الآخرون وأخذوا الزجاجات معهم. واستطاع هو ولوز سماعهم من الأسفل وهم في الشرفة. جلست لوز على السرير. لقد كانت نديّة ونضرة في ليلة حارة.

واصلت لوز القيام بنوبة عمل ليلية لمدة ثلاثة أشهر. سرهم أن يدعوها تقوم بهذا. عندما أجروا العملية عليه قامت بإعداد طاولة العمليات، وردد نكتة عن صديق أو حقنة شرجية. وحين أصبح تحت تأثير المخدر تماسك حتى لا يهذي ويكشف أسراره خلال فترة إنفلات اللسان السخيفة. وبعد أن أصبح يسير على عكازين، أخذ يقيس درجات الحرارة حتى لا تنهض لوز من السرير. كان هناك القليل من المرضى وكانوا يعرفون بعلاقتهما. كان الكل يحب لوز. وفيما كان يسير عائداً في القاعات كان يفكر في لوز مستلقية على سريره. قبل أن يعود إلى الجبهة ذهبا معاً إلى كنيسة دوومو وصليا. وكانت الكنيسة معتمة وهادئة وتجمّع هناك أُناس آخرون يصلون. أرادا أن يتزوجا ولكن الوقت لم يكن كافياً للإعلان عن الزواج ولم يكن لدى أي منهما شهادة ميلاد. وشعرا كما لو كانا متزوجين، ولكنهما أرادا أن يعرف الكل عن هذا الزواج ويسجلاه حتى لا يضيع منهما.

كتبت إليه لوز رسائل كثيرة لم يستلمها أبداً إلا بعد الهدنة. وصلت خمس عشرة رسالة على شكل رزمة إلى الجبهة فرتّبها

حسب تواريخها وقرأها . كانت تدور عن المستشفى وعن مدى حبها له وعن استحالة الإستمرار بالحياة دونه وعن مدى رهبة افتقادها له في الليل .

بعد الهدنة ، اتفقاعلى أن يعود إلى الوطن ليشغل وظيفة هناك حتى يمكنهما الزواج . ولم تكن لوز لتعود إلى الوطن إلا بعد أن يشغل وظيفة جيدة ويتمكن من الوصول إلى نيويورك ليقابلها . كان من المفهوم بأنه لن يشرب ولن يرى أصدقاءه أو أي شخص في الولايات المتحدة . كان يريد فقط الحصول على عمل ثم الزواج . وفي القطار من پادوا إلى ميلانو تشاجرا لأنها لم تكن ترغب العودة إلى الوطن في الحال . وحين كان عليهما أن يودعا بعضهما في المحطة في ميلانو، قبلا بعضهما قبلة الوداع ، لكنهما لم يكفّا عن الشجار . أحس بالغثيان من الوداع على هذا النحو .

سافر إلى أمريكا على ظهر سفينة أبحرت من جنوى . عادت لوز إلى بوردوتون لفتح مستشفى . كان الطقس موحشاً وممطراً هناك وكانت تعسكر كتيبة الجرأة في المدينة . وبإقامة رائد الكتيبة في المدينة الموحلة الممطرة في الشتاء ، مارس الحب مع لوز، لم تكن هي قد تعرفت على الإيطاليين من قبل ، وأخيراً كتبت إلى الولايات المتحدة قائلة بأن علاقتهما لم تكن سوى علاقة صبيانية . كانت آسفة وتعرف أن من المحتمل أن لا يكون قادراً على فهم ما جرى ، ولكنه قد يصفح عنها في يوم من الأيام ويحس بالإمتنان لها ، وبأنها تتوقع ، على نحو غير منتظر تماماً، الزواج من الرائد في الربيع . قالت بأنها تحبه كما كانت تحبه في السابق لكنها أدركت الآن بأنه كان حباً

صبيانياً. وتمنت له حياة عملية عظيمة وأنها تثق به ثقة مطلقة. كانت تعرف بأن ذلك كان لخيرهما.

لم يتزوجها الرائد في الربيع أو في أي فصل آخر. لم تصل لوز أية إجابة على رسالتها التي أرسلتها إلى تشيكاغو حول هذا. وبعد مدة قصيرة، أُصيب بعدوى مرض السيلان من بائعة في مخزن لبيع أدوات كهربائية متنوعة بينما كان يركب سيارة أُجرة تسير عبر منتزه لينكولن.

وطن جندي

بينما كان القصف يدمر الخندق إلى أشلاء في فوسالتا، استلقى متمدداً والعرق يتصب منه وصلى: آه يا يسوع المسيح أخرجني من هنا. أيها العزيز يسوع أخرجني من هنا، أرجوك، أرجوك، أرجوك يا يسوع المسيح. إذا أنقذتني من الموت سأفعل كل ما تطلبه مني. إنني أؤمن بك وسأخبر كل إنسان في العالم بأنك الوحيد الذي له أهمية في هذه الدنيا. أرجوك أرجوك يا يسوع العزيز. وانتقل القصف إلى مسافة أبعد من خط القتال. توجهنا للعمل في الخندق، وفي الصباح بزغت الشمس وكان اليوم حاراً ورطباً ومبهجاً وهادئاً. وفي الليلة التالية وحين عاد إلى ميستر لم يخبر الفتاة التي صعد معها إلى الطابق العلوي في دارةِ روزا عن يسوع ولم يخبر أي شخص آخر أبداً.

* * *

التحق كريبز بالحرب في كلية ميثودية في ولاية كانساس. هناك صورة تُظهره بين إخوانه وكلهم يرتدون ياقات من نفس الطراز

وبنفس الإرتفاع . كان قد جُنّد في مشاة البحرية (مارينز) في ١٩١٧ ولم يعد إلى الولايات المتحدة إلا بعد عودة الفرقة الثانية من الراين في صيف ١٩١٩ .

والتقطت له صورة تظهره عند الراين مع فتاتين المانيتين وعريف آخر. بدا حجما كريبز والعريف أكبر من حجمي الزيين اللذين كانا يرتديانهما. لم تكن الفتاتان الألمانيتان جميلتين. ولم يظهر نهر الراين في الصورة .

في الوقت الذي عاد فيه كريبز إلى بلدته في أوكلاهوما، كانت الإحتفالات التي تجري للترحيب بالأبطال قد انتهت. لقد عاد متأخراً جداً. لقد تم الترحيب بالرجال الذين جندوا من المدينة ترحيباً عظيماً عند عودتهم. لقد أثارت عودتهم هياجاً عاطفياً عظيماً بين سكان المدينة. والآن، هدأ رد الفعل. بدا كأن الناس يرون بأن من السخافة بمكان أن يعود كريبز في وقت متأخر كل هذا التأخير، بعد سنوات من إنتهاء الحرب .

في البداية، لم يرغب كريبز الذي زار غابة بيلو وسواسن وشمبانيا وسان ميهييل وآرغون في الحديث عن الحرب على الإطلاق، وفيما بعد أحس بحاجة إلى الخوض في الحديث عن الحرب ولكن أحداً من الناس لم يرغب في سماع شيء عنها فقد سمعت بلدته الكثير جداً من قصص البشاعة والفظاعة حتى أنهم لم يعودوا يتأثرون بسماع الأحداث الواقعية. اكتشف كريبز أن عليه أن يكذب حتى يصغي الناس إليه، وبعد أن فعل هذا مرتين أصابه، هو

أيضاً، رد فعل ضد الحرب وضد الحديث عنها وأحسّ بنفور من كل شيء جرى له في الحرب التي أقحم فيها بسبب الأكاذيب التي أطلقها. وفقدت كل الأيام التي كانت قادرة على إشاعة السكينة والصفاء في نفسه حين يفكر فيها، تلك الأيام التي تعود إلى الماضي السحيق التي كان يستطيع القيام أثناءها بالشيء الوحيد الذي يستطيع الرجل القيام به بسهولة وطبيعية، تلك الأيام التي كان يمكنه القيام أثناءها بأشياء أُخرى لو لم يذهب إلى الحرب، فقدت كل هذه الأيام الآن طبيعتها القيمة ثم ضاعت هي نفسها.

لم تكن أكاذيبه بذات أهمية، كانت عبارة عن نسبته أشياء رآها أو قام بها أو سمعها رجال آخرون إلى نفسه، وذكره حوادث معينة مشكوك في صحتها ونسبتها ومألوفة إلى كل الجنود كحقائق. حتى أكاذيبه لم تكن مثيرة للأحاسيس حين كان يرويها في قاعة البلياردو. لم تثر قصصه أحاسيس معارفه الذين كانوا قد سمعوا أوصافاً تفصيلية عن النساء الألمانيات اللواتي وُجدن موثقات على المدافع الرشاشة في غابة آرغون، فلم يستطع معارفه هؤلاء إدراك إمكانية وجود رماة ألمان غير موثقين على مدافعهم الرشاشة أو أن التعصب الوطني لهؤلاء المعارف حال بينهم وبين الإهتمام بإمكانية وجود رماة ألمان لم يوثقوا على هذا النحو.

أصاب كريبز قرف من تجارب هي نتاج الكذب أو المبالغة، وحين كان يلتقي صدفة برجل آخر يكون جندياً حقيقياً، ويتبادلان الحديث لبضع دقائق في غرفة تغيير الملابس في حفلة رقص فإنه كان يتخذ وضعية الجندي القديم البسيطة بين الجنود الآخرين والتي

تظهره رجلاً خائفاً خوفاً شديداً إلى حد التقزز طيلة الوقت. وبهذه الطريقة فقَدَ كل شيء. وفي هذا الوقت، كان الصيف في أواخره وكان ينام إلى وقت متأخر في السرير وينهض ليسير مشياً على الأقدام متجهاً نحو المكتبة ليستعير كتاباً ويتناول الغداء في البيت ويقرأ في شرفة مدخل البيت حتى يحس بالضجر وحينذاك يسير ماشياً عبر المدينة حتى يقضي أشد ساعات النهار حرارة في قاعة البلياردو الباردة المظلمة. لقد كان يحب لعب البلياردو.

وفي المساء! كان يتدرب على العزف على الكلارينيت ويتمشى إلى المدينة ويقرأ ثم يذهب إلى السرير لينام. كان ما زال بطلاً في عيني اختيه الصغيرتين. وكانت أُمه على استعداد لتقديم طعام الفطور إليه على السرير إن أراد هذا. وكثيراً ما كانت أُمه تدخل غرفته حين يكون راقداً على سريره وتطلب منه أن يحدثها عن الحرب ولكن انتباهها كان يسرح بعيداً دائماً. وكان أبوه لامبالياً قبل أن يذهب كريبز إلى الحرب، لم يكن يسمح له بقيادة سيارة الأسرة. كان أبوه يعمل ببيع الأراضي. وكان يريد دائماً أن تبقى السيارة تحت تصرفه ليجدها حين يطلبها لأخذ الزبائن إلى الريف ليريهم مزرعة لشرائها. كانت السيارة تقف دائماً خارج مبنى المصرف الوطني الأول حيث كان لوالده مكتب في الطابق الثاني منه. والآن، وبعد أن انتهت الحرب، لا تزال السيارة هي نفسها. لم يطرأ أي تغيير على المدينة سوى أن الفتيات الصغيرات السن قد كبرن ونضجن. ولكنهن كن يعشن في عالم معقد من تحالفات وثارات متبادلة حُدّدت بالسابق مما جعل كريبز لا يشعر بالقدرة ولا بالشجاعة لاقتحام هذا العالم. ومع

هذا، فإنه كان يحب النظر إليهن. هناك الكثير من الفتيات الصغيرات الجميلات. قصت معظمهن شعورهن فأصبح قصيراً. حين غادر البلدة كانت هذه التسريحة تقتصر على الفتيات الصغيرات أو الطائشات. كن كلهن يرتدين المعارق وقمصان يصل طولها إلى الخصر بياقات مستديرة هولندية الطراز. كان ذلك زياً شائعاً. كان يحب النظر إليهن من شرفة المدخل الأمامي المسقوفة وهن يمشين على الجانب الآخر من الشارع. كان يحب مراقبتهن وهن يمشين تحت ظلال الأشجار. أحب ياقاتهن المستديرة الهولندية الطراز فوق معارقهن. أحب جواربهن الحريرية وأحذيتهن المسطحة. أحب شعورهن المجزوزة وطريقة مشيتهن.

حين كان في المدينة لم تكن جاذبيتهن له قوية جداً. لم يحبهن حين رآهن في محل بيع البوظة (آيس كريم) اليوناني. ولم يكن يرغب فيهن حقاً. كن معقدات تعقيداً مفرطاً. كان هناك شيء آخر. وكانت تراوده رغبة غامضة بمصاحبة فتاة ولكنه لم يكن يريد بذل جهد للوصول إليها. كان يريد مصاحبة فتاة ولكنه لم يكن يريد أن يصرف وقتاً طويلاً للوصول إليها. ولم يكن يريد حبك مؤامرات ومناورات للوصول إلى هذا. ولم يكن يرغب التودد إليهن. لم يكن يريد اختلاق أية أكاذيب أخرى. لم تكن مصاحبة الفتيات تستأهل كل هذا.

لم يكن يريد مواجهة أية عواقب لهذا. لم يكن يريد مواجهة أية عواقب مرة أخرى. إنه يريد متابعة العيش دون تحمل مسؤولية عواقب. إضافة إلى هذا، فهو ليس بحاجة إلى فتاة. علّمه الجيش

ذلك. من الصواب أن تتظاهر كما لو كان عليك أن تصاحب فتاة. فكل شخص تقريباً يفعل هذا. ولكن هذا لم يكن صحيحاً. أنت لست بحاجة إلى فتاة. ذلك هو الأمر المضحك. في البدء يفخر الشخص بأن الفتيات لا يعنين شيئاً بالنسبة إليه ثم يتباهى الشخص بأنه لا يستطيع مواصلة الحياة دون فتيات وبأنه ينبغي عليه أن يصاحبهن طيلة الوقت وبأنه لا يستطيع النوم بدونهن.

كان كل هذا كذباً. كان الموقفان كلاهما كاذبين. إنك لا تحتاج إلى فتاة إلا إذا فكرت بالفتيات. تعلّم هذا في الجيش. ثم، عاجلاً أو آجلاً، تجد واحدة دائماً. حين تصبح ناضجاً بما فيه الكفاية لمصاحبة فتاة فإنك تصل إلى واحدة باستمرار. لا داعي بأن تفكر بهذا الموضوع. عاجلاً أو آجلاً سيحين الوقت. لقد تعلم هذا في الجيش.

إنه يود الآن مصاحبة فتاة شريطة أن تأتيه بنفسها ودون أن ترغب بالثرثرة، ولكن، هنا في الوطن كان كل شيء معقداً جداً. عرف بأنه عاجز عن تحقيق هذا مرة أُخرى. إنها مسألة لا تستحق العناء. ذلك ما كان يميز الفتيات الفرنسيات والفتيات الألمانيات. لم يكن من الضروري الكلام الكثير معهن. كنت غير قادر على الكلام الكثير، ولم تكن هناك حاجة إلى الكلام. كانت الأمور تتم ببساطة وسرعان ما تتصاحبا. فكر بفرنسا ثم بدأ يفكر بألمانيا. لقد أحب ألمانيا، بوجه عام، أكثر من فرنسا. لم يكن يريد ترك ألمانيا. لم يكن يريد العودة إلى الوطن. ومع هذا، فها قد عاد إلى الوطن. جلس في شرفة المدخل المسقوف.

أحبّ الفتيات اللواتي كن يمشين على طول الجانب الآخر من الشارع. كان يفضل منظرهن أكثر بكثير من منظر الفتيات الفرنسيات أو الفتيات الألمانيات. ولكن العالم الذي ينتمين إليه لم يكن نفس العالم الذي ينتمي إليه. إنه يود مصاحبة أحداهن. ولكن هذا لا يستحق العناء. كان نمطاً رائعاً. أحب نمطهن. كان نمطاً مثيراً. لكنه لا يود بذل الجهد من الكلام المطلوب. لم يكن يريد مصاحبة فتاة بإلحاح إلى هذا الحد. ومع هذا، فإنه كان يحب النظر إليهن جميعاً. إن هذا لا يستحق العناء. ليس الآن بعد أن بدأت الأمور تتحسن مرة أُخرى.

جلس في الشرفة الأمامية يقرأ كتاباً عن الحرب. لقد كان كتاب تاريخ وقرأ عن كل الإشتباكات التي خاضها. كانت أكثر قراءاته إقناعاً. ود لو كان الكتاب يحتوي على المزيد من الخرائط. تطلع بلهفة وشوق، وقد اعتراه إحساس رائع، إلى اليوم الذي يمكنه فيه قراءة كل كتب التاريخ الواقعية وقت صدورها مع خرائط تفصيلية فيها. إنه يتعلم الآن بالفعل دروساً عن الحرب. لقد كان جندياً جيداً. ذلك ما شكّل الفرق.

وفي يوم من الأيام بعد مرور حوالي الشهر على عودته إلى الوطن، دخلت أُمه غرفة نومه وجلست على سريره. سوّت مريلتها وقالت:

ـ تحدثت مع والدك ليلة أمس يا هارولد، إنه لا يمانع في أخذك السيارة وقيادتها في الأماسي.

قال كريبز الذي لم يكن قد استيقظ تماماً بعد.

- صحيح؟ أخرج بالسيارة؟ صحيح؟

- نعم. رأى أبوك بأنه يمكنك الخروج بالسيارة في الأماسي حينما يود الخروج، لقد تحدثنا عن هذا الموضوع ليلة أمس فقط.

قال كريبز:

- أنا واثق بأنك أقنعته بذلك.

- لا. لقد ناقشنا الأمر بناء على اقتراح أبيك.

جلس كريبز على سريره.

- نعم. أنا واثق بأنك أقنعته بذلك.

قالت أمه:

- ألن تنزل لتناول الإفطار يا هارولد؟

قال كريبز:

- حالما أرتدي ملابسي.

خرجت أُمه من الغرفة وسمعها تقلي شيئاً ما في الطابق السفلي فيما كان يغسل ويحلق لحيته ويرتدي ملابسه لينزل إلى غرفة الطعام لتناول الفطور. وبينما كان يتناول فطوره أحضرت أُخته البريد.

قالت:

- حسناً يا هارولد، أيها الرأس الناعس، ما الذي دعاك إلى اليقظة؟

نظر إليها كريبز. كان يحبها. كانت أفضل أخواته.

سألها:

- هل أحضرت الجريدة؟

ناولته جريدة كانساس سيتي ستار (نجمة مدينة كانساس) . نزع عنها لفافتها البنية وفتحها على صفحة الرياضة . فتح الستار وهي مطوية وركزها على دورق الماء وثبتها على طبق العصيدة حتى يتمكن من قراءتها وهو يأكل .

- هارولد .

وقفت أُمه في مدخل باب المطبخ .

- يا هارولد . لا تكرمش الجريدة . أبوك لا يستطيع قراءة جريدة وهي مكرمشة .

قال كريبز :

- لن أُكرمشها .

جلست أُخته على الطاولة وراقبته وهو يقرأ .

قالت :

- ستجري مباراة داخل المدرسة بعد ظهر اليوم . سأقوم بدور قاذفة الكرة .

قال كريبز :

- حسناً . كيف حال الجناح القديم ؟

- أستطيع قذف الكرة أفضل من الفتيات . لقد أعلمتهم كلهم بأنك أنت الذي علمني قذف الكرة . لا تتمتع الفتيات الأخريات بمهارتي .

قال كريبز :

- أحقاً ؟

ـ أخبرتهن كلهن بأنك فتاي . ألست فتاي يا هارولد؟

ـ هذا صحيح .

ـ ألا يمكن لأخيك أن يكون فتاك بالفعل لمجرد أنه أخوك؟

ـ لا أدري .

ـ أنت تعرف بالتأكيد . ألا يمكنك أن تكون فتاي يا هارولد إذا كنت قد بلغت السن المناسب وإذا أردت أنت ذلك؟

ـ بالتأكيد، أنتِ فتاتي الآن .

ـ هل أنا فتاتك حقاً؟

ـ بالتأكيد .

ـ أتحبُّني؟

ـ أوه هو .

ـ هل ستحبني دائماً؟

ـ بالتأكيد .

ـ هل ستحضر وتشاهدني ألعب في المدرسة؟

ـ قد أحضر .

ـ أوه . يا هارولد، أنت لا تحبني . إذا كنت تحبني فلا بد أن تحضر وتشاهدني وأنا ألعب في المدرسة .

دخلت أم كريبز إلى غرفة الطعام من المطبخ . كانت تحمل طبقاً فيه بيضتان مقليتان وبعض لحم الخنزير المقدّد المقلي عليهما وطبق كعك من الحنطة السوداء .

قالت :

ـ اخرجي أنت بسرعة يا هيلين . أُريد أن أتكلم مع هارولد .

وضعت البيض ولحم الخنزير المقدّد أمامه وأحضرت دورقاً من عصير قصب السكر لصبه على كعك الحنطة السوداء . ثم جلست إلى الجانب الآخر من الطاولة قبالة كريبز .

قالت :

ـ أُريدك أن تضع الجريدة جانباً لمدة دقيقة يا هارولد .

وضع كريبز الجريدة وطواها .

قالت أُمه وهي ترفع نظارتها :

ـ هل وصلت إلى قرار حول العمل الذي ستشغله يا هارولد؟

قال كريبز :

ـ لا .

ـ ألا تعتقد بأن الوقت قد حان للوصول إلى قرار حول هذا؟

لم تقل أمه هذا بطريقة مهيبة . بدت بأنها قلقة .

قال كريبز :

ـ لم أُفكر بهذا؟

قالت أُمه :

ـ لقد حدّد الله لكل إنسان عملاً يقوم به . من المستحيل وجود أيد عاطلة عن العمل في مملكته .

قال كريبز :

- أنا لست في مملكته .
- نحن كلنا في مملكته .

تملك كريبز إحساس بالحرج والسخط.

تابعت أُمه قولها :

- أنا قلقة عليك كثيراً يا هارولد. أنا أعرف المحن التي لا بد أنك تعرضت لها. وأنا أعرف مدى ضعف الرجال. وأنا أعرف ما قاله جدك العزيز أبي لنا عن الحرب الأهلية وقد صليت من أجلك. إنني أُصلي من أجلك طيلة النهار يا هارولد.

نظر كريبز إلى دهن لحم الخنزير المقدد وهو يتجمد في طبقه .

تابعت أمه :

- وأبوك قلق عليك أيضاً. وهو يعتقد بأنك فقدت طموحك وليس لديك هدف محدد في حياتك. لقد شغل تشارلي سيمونز، الذي هو من جيلك تماماً، وظيفة جيدة وهو عازم على الزواج. لقد استقرت أمور كل الفتيان وهم مصممون على الوصول إلى هدف ما، يمكنك أن ترى بأن فتياناً، مثل تشارلي سيمونز، هم في طريقهم ليصبحوا مجال فخر حقيقي للمجتمع .

لم يقل كريبز شيئاً .

قالت أُمه :

- لا تنظر إلي بهذه الطريقة يا هارولد. أنت تعرف بأننا نحبك وأود أن أُخبرك، لمصلحتك الخاصة، كيف تسير الأمور، لا يريد والدك

تقييد حريتك. هو يعتقد بأنه يجب أن يسمح لك بقيادة السيارة وإذا أردت أن تأخذ بعض الفتيات الجميلات في السيارة معك، فإن هذا سيكون من دواعي سرورنا. نريدك أن تمتع نفسك. ولكن عليك أن تستقر وتشغل عملاً يا هارولد. لا يهم والدك نوع العمل الذي ستبدأ بشغله. فكل عمل يشرّف كما يقول. ولكنه ينبغي عليك أن تبدأ بشيء ما. لقد طلب مني أن أتكلم معك هذا الصباح وبعدئذٍ يمكنك المرور عليه ورؤيته في مكتبه.

قال كريبز:

- أهذا كل شيء؟

- نعم. ألا تحب أمك يا ولدي العزيز؟

قال كريبز:

- لا.

نظرت إليه أُمه عبر الطاولة. التمعت عيناها. انخرطت بالبكاء.

قال كريبز:

- أنا لا أُحب أحداً.

لم يكن هناك فائدة. لن يستطيع إخبارها، لن يستطيع جعلها ترى الأمور على حقيقتها. كان من السخف أن يقول ما قاله. لقد جرح إحساسها. دنا منها وأمسك بذراعها. كانت تبكي ورأسها بين يديها.

قال:

- لم أقصد ذلك. كنت غاضباً من شيء ما. لم أقصد القول بأنني لا أُحبك.

واصلت أُمه بكاءها . وضع كريبز ذراعه على كتفها :

ـ ألا تصدقيني يا أُمي؟

هزت أُمه رأسها .

ـ أرجوك يا أُمي . أرجوك ، صدقيني .

قالت أُمه بصوت مختنق :

ـ حسناً .

رفعت نظرها إليه :

ـ أنا أُصدقك يا هارولد .

قبل كريبز شعرها . رفعت وجهها إليه .

قالت :

ـ أنا أُمك . لقد حملتك قرب قلبي حين كنت طفلاً رقيقاً .

اجتاح كريبز إحساس بالدوار وأصابه غثيان غامض .

قال :

ـ أنا أعرف يا أُمي . سأحاول أن أكون ولداً صالحاً من أجلك أنتِ .

طلبت منه والدته :

ـ هلا ركعت وصلّيت معي يا هارولد؟

ركعا إلى جانب طاولة غرفة الطعام ورددت أُم كريبز صلاة .

قالت :

ـ والآن ، صل أنت يا هارولد .

قال كريبز :

ـ لا أستطيع .

- حاول يا هارولد.
- لا أستطيع.
- هل تريدني أن أُصلي من أجلك؟
- نعم.

وهكذا صلت أُمه من أجله ومن ثم نهضا وقبَّل كريبز أُمه وخرج من المنزل. حاول جاهداً أن يبقي حياته بعيدة عن التعقيد. لم يلفه أي تعقيد لحد الآن. لقد أحس بالأسف لأجل أُمه، فقد دفعته إلى الكذب. سيذهب إلى مدينة كانساس وسيحصل على وظيفة وستشعر أُمه بالإطمئنان والإرتياح لهذا. قد تثور ضجة أُخرى قبل أن يسافر. لن يذهب إلى مكتب أبيه. ولن ينفذ هذا الطلب. إنه يريد لحياته أن تسير سيراً سلساً. لقد بدأت لتوها تسير بهذا الإتجاه. حسناً. لقد انتهى الأمر الآن بطريقة ما. سيذهب إلى فناء المدرسة ليشاهد هيلين وهي تلعب البيسبول داخل المدرسة.

الثوري

في الساعة الثانية صباحاً دخل شخصان من أصل مجري إلى مخزن سيجار في الشارع الخامس عشر وجراند أفينيو. كان دريفيتسْ وبويل يتقدمان في سيارة فورد من مركز شرطة الشارع الخامس عشر. كان المجريان يقودان عربتهما إلى الخلف لإخراجها من الزقاق. أطلق بويل النار وطرح أحدهما بعيداً عن مقعد العربة وأصاب الآخر فقذف به خارج صندوق العربة. ارتعب دريفيتسْ حين اكتشف بأنهما ماتا. . قال: «يا للجحيم يا جيمي. كان عليك أن لا تفعل هذا. فقد تقع الكثير من المتاعب».

قال بويل: «إنهما محتالان، أليس كذلك؟ إنهما أجنبيان، أليس كذلك؟ من سيثير المتاعب بحق الجحيم؟».

قال دريفيتس؛ «قد يمر الأمر بسلام هذه المرة، لكن كيف عرفت بأنهما أجنبيان حين جندلتهما؟».

قال بويل: «إنهما أجنبيان. إنني أعرف الأجنبي من على بعد ميل».

في سنة ١٩١٩، كان يسافر في القطارات إلى جميع أنحاء إيطاليا وهو يحمل قطعة قماش مشمّعة، مربعة الشكل من مركز قيادة الحزب مكتوب عليها بقلم رصاص لا يمكن محوه عبارة تذكر بأنه رفيق قاسى الكثير جداً من حكم البيض في بودابست وتَطلبُ من الرفاق مساعدته بأية طريقة كانت. لقد استعمل هذه القطعة من القماش المشمّع بدلاً من تذكره. كان شاباً خجولاً جداً وهادئاً وقام عاملو القطارات بتسليمه من طاقم إلى آخر. لم يكن لديه نقود، فقدموا إليه الطعام خلف نضد المشرب في قاعات الطعام في محطات سكك الحديد.

أثارت إيطاليا البهجة في نفسه. قال بأنها بلد جميل. كان كل الناس لطفاء. زار مدناً كثيرة، وقطع سيراً على الأقدام مسافات طويلة، ورأى العديد من اللوحات جيوتو، ماساشيو وبييروديلا فرانسيسكا وقد اشترى نسخاً منها وحملها بعد أن لفها في جريدة إلى الأمام (أفانتي). لم يحب مانتينيا.

قدم تقريراً في بولونيا وأخذته معي إلى رومانيا حيث كان من الضروري عليّ الذهاب لأرى رجلاً ما. تمتعنا برحلة طيبة معاً. كان شهر سبتمبر/ أيلول في أوائله وكان الريف بهيجاً. كان مجرياً وفتى طَيباً وخجولاً جداً. لقد أساء إليه رجال هورثي. تحدث عن ذلك قليلاً. على الرغم مما حدث في المجر، إلا أنه كان يؤمن بالثورة العالمية جملة وتفصيلاً.

سأل:

ـ كيف حال الحركة في إيطاليا؟

قلت :

- إنها بحالة سيئة جداً .

قال :

- لكنها ستتحسن . لديكم كل شيء هنا . إنها البلاد الوحيدة التي لا يشك أحد بها . ستكون نقطة البداية لكل شيء .

لم أقل شيئاً .

في بولونيا ودعنا ليسافر بالقطار إلى ميلانو ثم إلى أوستا ثم ليقطع الممر الجبلي سيراً على الأقدام ليدخل سويسرا . تحدثت معه عن جماعة مانتينيا في ميلانو . قال بخجل شديد «لا» إنه لا يحب مانتينيا . سجلت له على ورقة الأماكن التي يمكنه تناول الطعام فيها في ميلانو وعناوين الرفاق . شكرني كثيراً ولكن تفكيره كان يتركز بلهفة وشوق على قطع الممر الجبلي . كان متلهفاً جداً للسير على الممر الجبلي بينما الطقس لا يزال حسناً . إنه يحب الجبال في فصل الخريف . وكان آخر ما سمعته عنه هو أن السويسريين القوا به في سجن قرب سيون .

السيد والسيدة أليوت

أدخل مصارع الثيران الأول قرن الثور خلال مقبض سيفه، وصاح الجمهور استهجاناً. وانزلق مصارع الثيران الثاني وأصابه الثور في بطنه فتعلق مصارع الثيران بقرن الثور بيد ووضع اليد الثانية في مكان الإصابة ونطحه الثور وخبطه على الحائط. وتحرر قرن الثور واستلقى الرجل على الرمل ونهض مثل سكران مخبول وحاول ضرب الرجال الذين كانوا يحملونه وصرخ طالباً سيفه ولكنه أُغمي عليه. خرج الفتى وكان عليه أن يقتل خمسة ثيران لأنه لم يكن يسمح بدخول أكثر من ثلاثة مصارعي ثيران، وحين وصل الثور الأخير كان على درجة من الإعياء لم تمكنه من غرس سيفه فيه. كان لا يكاد يستطيع رفع ذراعه إلا بصعوبة. حاول خمس مرات، وتقبل الجمهور محاولاته بهدوء لإنه كان ثوراً رائعاً وبدا شبيهاً به وهو شبيه بالثور وأخيراً نجح. جلس على الرمل وتقيأ ونشروا فوقه كاباً فيما كان الجمهور يصيح ويقذف بالأشياء إلى داخل حلبة مصارعة الثيران.

* * *

بـذل كل من السيد والسيدة أليوت أقصـى جهودهمـا لإنجـاب طفل . حاول ذلك مرات عديدة بالقدر الذي استطاعت السيدة أليوت احتمالها . وحاولا هذا في بوسطن بعد أن عقدا قرانهما وحاولا هذا كذلك وهما في طريق عودتهما على ظهر السفينـة . لم يحـاولا هذا مرات عديدة في السفينـة لأن السيدة أليوت مرضـت مرضـاً شديداً . كانت مريضة وحين كانت تمرض فإنها كانـت تمـرض كمـا تمـرض النساء الجنوبيات . أعني سائر نساء الجـزء الجنوبـي من الـولايات المتحدة الأمريكية . ومثلها مثل النسـاء الجنـوبيات ، انحلـت قوى السيدة أليوت بسرعة بسبب دوار البحر والسفر ليلاً والنهوض في وقت مبكر جداً من الصباح . وظن الكثير من الناس المسافرين على ظهر السفينة بأنها أُم أليوت . واعتقد الآخرون الذين كانوا يعرفون بأنهما متزوجان بأنها حامل . في الحقيقة كان عمرها أربعين عاماً . ظهر على وجهها فجأة حين بدأت رحلتها .

بدت أصغر سناً بكثير مما هي في الحقيقـة ، وفـي الواقـع بدت وكأن ليس لها عمر يميزها . حين تزوجها أليوت بعد أسابيع عديدة من ممارسة الحب معها وبعد أن تعرف عليهـا لمـدة طويلـة في محلهـا الخاص لبيع الشاي قبل أن يقبلها ذات مساء .

كان هيوبرت أليوت يعد دراسـات عليا في القانـون في جامعـة هارفارد حين تزوج . وكان شاعراً بدخـلٍ سنوي يقارب عشرة آلاف دولار في السنة . كان يكتب قصائد طويلـة جداً وبسرعـة . كان في الخامسة والعشرين من عمره ولم يضاجع امرأة في حياته حتى تزوج السيدة أليوت . أراد أن يحتفظ بطهارته حتى يقدم إلى زوجتـه نفس

طهارة العقل والجسم التي توقع أن تقدمها له. دعا هذا الموقف لنفسه: العيش باستقامة. وقع في غرام فتيات مختلفات قبل أن يقبّل السيدة أليوت وكان يخبرهن على الدوام، إن عاجلاً أو آجلاً، بأنه عاش حياة نظيفة. فقدت كل الفتيات تقريباً الإهتمام به. لقد صدمته، وبالحقيقة أفزعته، الطريقة التي كانت تتم فيها خطبة وزواج فتيات إلى رجال عَرَفهم بأنهم كانوا قد مرغوا أنفسهم في الوحل. حاول مرة أن يحذّر فتاة تعرّف عليها من رجل كان لديه الدليل الساطع على انحلاله في الكلية وعلى أنه كان وراء حادث مؤسف هناك.

كان إسم السيدة أليوت: كورنيليا. علّمته أن يناديها بـ «كالوتنا»، وكان هذا الإسم هو لقب عائلتها في الجنوب. بكت أُمه حين أحضر كورنيليا معه إلى بيت الأسرة بعد زواجهما. لكنها سرت كثيراً حين علمت بأنهما ينويان العيش خارج البلاد. قالت كورنيليا: «أيها الفتى الجميل العزيز» وزادت التصاقاً به أكثر من أي وقت آخر حين أخبرها عن الطريقة التي حافظ فيها على نفسه نظيفاً من أجلها. كانت كورنيليا طاهرة أيضاً. قالت: «قبّلني مرة أُخرى بهذه الطريقة».

بيّن لها هيوبرت بأنه تعلم طريقة التقبيل تلك من قصة سمع زميلاً له يقصها. كان سعيداً بتجربته تلك وطوّراها قدر استطاعتهما. وأحياناً، حين كانا يتبادلان القبل لمدة طويلة، كانت كورنيليا تطلب منه أن يخبرها مرة أُخرى بأنه حافظ على نفسه وسار على الصراط

المستقيم من أجلها. وكانت تحمله على إعادة التصريح بهذا مرات ومرات.

في باديء الأمر، لم تكن تراود ذهن هيوبرت فكرة الزواج من كورنيليا. ولم يفكر فيها كزوجة. لقد كانت صديقة حميمة له، وفي يوم من الأيام وفي غرفة خلفية صغيرة من الدكان كانا يرقصان على أنغام حاكي (جراموفون) بينما كانت صديقتها تقف في مقدمة الدكان، نظرت في عينيه فقبّلها. لم يتمكن من تذكر متى قرر الزواج تماماً. ولكنهما تزوجا. قضيا ليلة النهار الذي تم فيه زواجهما في فندق في بوسطن. أحس كلاهما بخيبة الأمل ولكن كونيليا استغرقت في النوم أخيراً. لم يستطع هيوبرت النوم وخرج عدة مرات وذرع رواق الفندق جيئة وذهاباً في رداء حمام جايجير الجديد الذي اشتراه خصيصاً لمناسبة رحلة زفافه. وبينما كان يذرع الرواق، رأى أزواجاً من الأحذية، الصغيرة والكبيرة خارج أبواب غرف الفندق. أثار هذا المنظر خفقان قلبه بشدة وأسرع داخلاً حجرته ولكن كورنيليا كانت نائمة. لم يرغب في إيقاظها وبعد فترة قصيرة، هدأ كل شيء ونام بسلام.

وفي اليوم التالي زارا أُمه وأبحرا إلى أُوروبا في اليوم الذي تلاه. كان من الممكن إنجاب طفل ولكن كورنيليا لم تستطع إجراء هذه المحاولة لمرات عديدة مع أنهما كانا يتوقان لإنجاب طفل أكثر من أي شيء آخر في العالم. رست السفينة بهما في شيربورج ووصلا إلى باريس. حاولا إنجاب طفل في باريس. ثم قررا الذهاب إلى مدينة ديجون حيث توجد مدرسة صيفية ذهب إليها عدد من

الأشخاص الذين عبروا المحيط معهما على ظهر نفس السفينة . لم يكن هناك من شيء يفعلونه في ديجون . ومع هذا، فقد كتب هيوبيرت عدداً كبيراً من القصائد طبعتها له كورنيليا على الآلة الكاتبة . كانت كلها قصائد طويلة جداً . لقد كان متزمتاً جداً فيما يتعلق بالأغلاط فقد كان يجبرها على إعادة طباعة صفحة كاملة إنْ وجدت فيها غلطة واحدة . بكت كثيراً وحاولت مرات عديدة إنجاب طفل قبل مغادرتهما ديجون .

وصلا إلى باريس ورجع أغلب أصدقائهما الذين تعرفا عليهم في السفينة إلى باريس أيضاً . لقد اتعبتهم ديجون . ولكنهم أصبحوا الآن قادرين على القول بأنهم بعد مغادرتهم هارفارد أو كولومبيا أو واباش درسوا في جامعة ديجون على كوت دي أور (ساحل الذهب) . كان الكثير منهم يفضل الذهاب إلى لانجويدوك أو مونتبلييه أو بيربينيان لو كانت توجد فيها جامعات غير أن كل هذه المدن كانت بعيدة جداً . وتقع ديجون على بعد أربع ساعات ونصف فقط من باريس كما كانت هناك حافلة طعام في القطار المسافر إلى ديجون .

وهكذا جلسوا جميعاً حول (كافيه دو دوم) Café du Dome ، مقهى القبة متفادين المستديرة (روتوندو) Rotundo على الرصيف الآخر من الشارع لأنها تكون دائماً مزدحمة جداً بالأجانب لبضعة أيام، ومن ثم استأجر أليوت وزوجته Chateau قصراً في تورين عن طريق إعلان في نيويورك هيرالد . وخلال هذه المدة أصبح لأليوت عدد من الأصدقاء الذين أصبحوا كلهم معجبين بشعره حينذاك، وأقنعته السيدة أليوت بعد الحاح منها ليرسل إلى صديقتها المقيمة في

بوسطون والتي كانت تعمل في محل الشاي رسالة يحثها فيها على الحضور لتقيم معهما. أصبحت أليوت أكثر سروراً بعد وصول صديقتها وذرفتا الدموع معاً مرات عديدة. كانت الصديقة تكبر كورنيليا عدة سنين وكانت تدعوها: حبيبتي. وكانت قد انحدرت هي الأخرى من عائلة جنوبية عريقة جداً.

ذهب الثلاثة مع عدد كبير من أصدقاء أليوت الذين كانوا يدعونه هيوبي إلى القصر في تورين. وجدوا بأن تورين كانت بلداً تقع في أرض منبسطة حارة جداً تشبه كانساس شبهاً كبيراً. أصبح لدى أليوت عدد من القصائد تكفي لضمها في كتاب الآن. وكان عازماً على نشر الكتاب في بوسطون، وكان قد أرسل صكاً إلى ناشر أبرم معه عقداً

وخلال وقت قصير، بدأ الأصدقاء ينسحبون راجعين إلى باريس. وظهر في النهاية أن تورين لم تكن كما بدت حين رأوها أول الأمر. وبعد فترة وجيزة غادره كل أصدقائه مع شاب غني وشاعر أعزب في منتجع قرب تروفي. وهناك كان الجميع سعداء جداً.

وبقي أليوت في القصر في تورين لأنه كان قد استأجره لفترة الصيف كله. حاول هو والسيدة أليوت أقصى جهودهما لإنجاب طفل في غرفة النوم الكبيرة الحارة على السرير القاسي الكبير. كانت السيدة أليوت تتعلم طريقة اللمس على الآلة الكاتبة، واكتشفت بأنه بالرغم من أن هذه الطريقة تزيد السرعة إلا أنها تؤدي إلى ارتكاب أغلاط أكثر. أصبحت صديقتها تقوم الآن عملياً بطبع كل المخطوطات. كانت دقيقة جداً وكفوءة وبدا بأنها تستمتع بعملها هذا.

أدمن أليوت على شرب النبيذ الأبيض وقضى وقته منعزلاً عنهما في غرفته الخاصة. كان يكتب كثيراً جداً من الشعر ليلاً ويبدو في الصباح مرهقاً جداً. وأصبحت السيدة أليوت وصديقتها تنامان معاً في السرير الكبير الذي يعود إلى طراز القرون الوسطى، كانتا تذرفان الدموع مرات عديدة معاً. وفي المساء كانوا يجلسون إلى مائدة العشاء معاً في الحديقة تحت شجرة دلب وريح المساء تهب عليهم، فيما كان أليوت يشرب النبيذ الأبيض وتتبادل السيدة أليوت وصديقتها أطراف الحديث وسعادة غامرة تلفُّهم جميعاً.

قطة تحت المطر

ضربوا الحصان الأبيض على قوائمه فنهض على ركبتيه. أدار النخّاز الركاب إلى الأمام وجذبه وقفز ليقف على السرج. تدلّت أحشاء الحصان إلى أسفل كتلة زرقاء وناست إلى الخلف وإلى الأمام عندما بدأ الفرس يخب، وسائس الخيل يضربه على مؤخرة أرجله بالقضبان. خبّ مهتزاً على طول الحاجز. وقف متصلباً وأمسك سائس خيل لجامه وقاده وضرب النخّاز بمهمازيه، وانحنى إلى الأمام وهز رمحه باتجاه الثور. وكان الدم ينبجس على نحو مضطرد من بين ساقي الحصان الأماميتين. لم يستطع الثور إقرار العزم على الهجوم.

* * *

كانا الأمريكيين الوحيدين في الفندق. لم يعرفا أياً من الأشخاص الذين مروا بهم على الدرج وهما في طريقهما لدخول غرفتهما والخروج منها. كانت غرفتهما تقع في الطابق الثاني وتُشرف على البحر. كما كانت تشرف على الحديقة العامة ونصب الجندي

المجهول . انتشرت أشجار نخيل باسقة ومقاعد خشبية طويلة خضراء في الحديقة العامة . وفي أيام الصحو، كان يتواجد فيها دائماً فنان مع حامل رسم . فقد أحب الفنانون طريقة نمو النخيل وألوان الفنادق الزاهية المواجهة للحدائق والبحر. واعتاد ايطاليون الحضور من أماكن بعيدة ليلقوا نظرة على نصب الجندي المجهول. وكان مصنوعاً من البرونز ويلمع تحت المطر. كانت السماء تمطر. وتساقطت الأمطار من على أشجار النخيل . تجمعت الأمطار في برك تكوّنت في ممرات فرشت بالحصى . وتكسرت أمواج البحر تحت المطر في خط طويل وانزلقت راجعة إلى الشاطيء لترتفع مرة أُخرى وتتكسر في خط طويل تحت المطر. أخلت السيارات الساحة المجاورة لنصب الجندي المجهول . وفي الجانب الآخر من الساحة وفي مدخل مقهى، وقف نادل ينظر ألى الخارج إلى الساحة الخالية .

وقفت الزوجة الأمريكية قرب النافذة تنظر إلى الخارج . في الخارج وتحت نافذتهما تماماً، أقعت قطة تحت إحدى الطاولات الخضراء التي يقطر منها الماء . حاولت القطة الإنكماش على نفسها حتى لا تسقط قطرات الماء عليها .

قالت الزوجة الأمريكية :

ـ سأنزل وأحضر تلك القطيطة .

عرض عليها زوجها وهو مستلق على سريره :

ـ سأفعل هذا .

ـ لا، سأحضرها أنا . القطيطة المسكينة، تحاول أن تبعد عن نفسها البلل بالإختباء تحت الطاولة .

واصل الزوج القراءة وهو مستلقٍ على سريره وقد رفع جسمه إلى أعلى متكئاً على وسادتين وضعهما في مؤخرة السرير.

قال :

ـ لا تبللي نفسك . ؟

هبطت الزوجة إلى الطابق السفلي فوقف صاحب الفندق وأحنى رأسه محيياً حين مرّت عن المكتب، كانت طاولته تنتصب في الطرف القصي من غرفة المكتب. كان رجلاً عجوزاً وطويلاً جداً.

قالت الزوجة :

ـ Il Piove (*) إنها تمطر.

كانت تستلطف صاحب الفندق.

ـ S'i, si, Signora, brutto tempo (**) إنه طقس سيء جداً يا سينيورة.

وقف خلف مكتبه في الطرف القصي من الغرفة المعتمة. كانت الزوجة تستلطفه. أحبت طريقته المفرطة الجدية في سماعه أية شكاوى. وأحبت وقاره. وأحبت الطريقة التي كان يريد فيها خدمتها. أحبت طريقة إحساسه بأنه صاحب الفندق. أحبت وجهه العجوز الثقيل ويديه الكبيرتين.

وفيما كان هذا الإحساس بالميل إليه يعتريها، فتحت الباب ونظرت إلى الخارج. كانت تمطر بغزارة أعظم. عبر رجل يرتدي عباءة مطاطية الساحة الخالية متجهاً إلى المقهى. لا بد أن القطة

(*) (**) بالإيطالية في الأصل.

تقعي في المنطقة الواقعة على يمينها. ربما تستطيع السير تحت الافريز. وبينما هي تقف في مدخل الفندق، انفتحت مظلة خلفها. كانت الخادمة التي تتولى العناية بغرفتهما.

- عليك أن لا تتعرضي للبلل.

ابتسمت وهي تتكلم الإيطالية. من الطبيعي أنّ صاحب الفندق أرسلها إليها. وسارت الخادمة ممسكة بالمظلة فوق رأسها على طول الممر المفروش بالحصى حتى وصلت إلى المكان الواقع تحت نافذتيهما. كانت الطاولة هناك وقد غسلها المطر وأصبحت لامعة الخضرة غير أن القطة كانت قد ذهبت. أُصيبت فجأة بخيبة أمل. رفعت الخادمة نظرها إليها.

- Ma Pasduts quel checosa, Signora (*) هل فقدت شيئاً يا سيدتي؟

سألت الفتاة الأمريكية:

- كانت توجد قطة هنا.

- قطة؟

- Si, il gatto نعم. قطة.

- قطة.

ضحكت الخادمة.

- قطة تحت المطر؟

قالت:

- نعم. تحت الطاولة.

(*) بالإيطالية في الأصل.

ثم تابعت:

- أردت الحصول عليها. أردت تلك القطيطة.

حين تكلمت بالإنكليزية توتر وجه الخادمة.

قالت:

- تعالي يا سيدتي Signora . يجب أن نعود إلى الداخل. ستتبللين.

قالت الفتاة الأمريكية:

- أرى هذا.

عادتا سائرتين على ممر مرصوف ودخلتا من الباب. وبقيت الخادمة في الخارج لتغلق المظلة. حين مرت الفتاة الأمريكية أمام المكتب انحنى صاحب الفندق من وراء مكتبه. أحست الفتاة بتوتر طفيف في داخلها. كان صاحب الفندق يثير فيها إحساساً بأنها ضئيلة جداً وذات أهمية حقيقية. وفي نفس الوقت ساورها إحساس خاطف بأنها تتمتع بأهمية فائقة. واصلت ارتقاء الدرج. ثم فتحت باب الغرفة. كان جورج مستلقياً على السرير يقرأ.

سأل وهو يضع الكتاب على السرير:

- هل أحضرت القطة؟

- ذهبت.

قال وهو يريح عينيه من القراءة.

- أتساءل إلى أين ذهبت؟

جلست على السرير:

- أردتها برغبة شديدة. لا أدري لماذا أردت الحصول عليها بهذه

الرغبة الشديدة .

أردت الحصول على تلك القطيطة المسكينة . من السخف، أن نبقى قطيطة مسكينة في الخارج تحت المطر .

عاد جورج يقرأ مرة أُخرى .

ابتعدت وجلست أمام مرآة طاولة الزينة وهي تنظر إلى نفسها بمرآة اليد . درست جانبية (Profile) وجهها، جانب واحد أولاً ثم الجانب الآخر . ثم درست مؤخرة رأسها ورقبتها .

سألت وهي تنظر إلى جانبية وجهها .

ـ ألا ترى بأن شعري سيكون رائعاً لو أطلته؟

رفع جورج نظره إلى أعلى ورأى قفا رقبتها وهي مجزورة الشعر حتى بدت وكأنها رقبة ولد .

ـ أُحبه على الطريقة التي هو عليها .

قالت :

ـ سئمت منه . سئمت من أن أبدو ولداً .

غيّر جورج وضعيته في السرير . لم يبعد نظراته عنها منذ بدأت تتكلم .

قال :

ـ تبدين جميلة جداًهكذا .

وضعت المرآة على الطاولة واقتربت من النافذة ونظرت إلى الخارج . بدأ الظلام يخيم على الكون .

قالت :

- أُريد أن أجمع شعري إلى الخلف وأحكم ربطه وأجعله ناعماً وأجمعه على شكل عقدة في مؤخرة رأسي حتى أستطيع أن أُحس به . أُريد أن يكون لدي قطيطة تجلس في حجري وتخر حين أمسد شعرها .

قال جورج من على السرير :

- حسناً .

- أُريد أن آكل على طاولة بطقم مائدة فضي مع شموع تضيء المائدة . وأُريد أن يكون الفصل ربيعاً وأُريد أن أُمشط شعري بفرشاة أمام مرآة وأُريد قطيطة وأُريد بعض الملابس الجديدة .

قال جورج :

- أوه . اخرسي وابحثي عن كتاب تقرأينه .

عاد يقرأ من جديد .

كانت زوجته تنظر إلى خارج النافذة . خيم الظلام تماماً واستمر المطر يهطل مخترقاً أشجار النخيل .

قالت :

- على أي حال ، أُريد قطة . أُريد قطة . أُريد قطة الآن . إذا لم أستطع إطالة شعري أو اللهو ، فإنني أستطيع الحصول على قطة .

لم يكن جورج يصغي إليها . كان يقرأ في كتابه . نظرت زوجته إلى خارج النافذة إلى حيث أضاء النور في الساحة .

طرق أحدهم الباب .

قال جورج :

ـ أُدخل .

رفع نظره عن الكتاب .

في مدخل الباب وقفت الخادمة . أمسكت بقطة بلون صدفة سلحفاة وهي تشدها إليها وقد تدلّت من على جسمها .

قالت :

ـ عفواً . طلب مني المعلم بأن أعطي هذه للسيدة .

في غير أوانه

واصل الجمهور الصراخ طيلة الوقت وقذف قطع من الخبز إلى داخل الحلبة، ثم بالوسائد وقِرَب النبيذ الجلدية، مع الإستمرار بالصفير والصراخ. وأخيراً، أحس الثور بالتعب لكثرة النخز المؤلم وثنى ركبتيه واستقر على الأرض، انحنى أحد أفراد الرباعي على رقبته بالحربة الناخزة. قفز الجمهور عن الحاجز وأحاطوا بمصارع الثيران وأمسك به رجلان وأوقفاه فيما قطع واحد من الجمهور خصلة شعره (ذيل الخنزير) ولوح بها فانتزعها صبي منه وهرب وهو يحملها. وفيما بعد رأيته في المقهى. كان قصيراً جداً بوجه أسمر وسكران تماماً وقال بأن مثل هذا قد حدث من قبل. أنا لست مصارع ثيران ماهراً في الحقيقة.

* * *

بالليرات الأربع التي كسبها بيدوزي بعزقة حديقة الفندق، سكر تماماً. رأى السيد الشاب يسير هابطاً على الممر وتحدث معه حديثاً غامضاً. قال له السيد الشاب بأنه لم يأكل ولكنه سيكون مستعداً

للذهاب حالما ينتهي الغذاء. أربعون دقيقة أو ساعة واحدة.

وفي المطعم Contina قرب الجسر قدموا إليه ثلاث كؤوس أُخرى من شراب جرابا Grappa الإيطالي المسكر لأنه كان واثقاً من نفسه تماماً ويحس أحساساً غامضاً بمهنته بعد الظهر. وكان يوماً عاصفاً تطل فيه الشمس من وراء السحب ثم تختفي تحت رشاش المطر. يوم رائع لصيد سمك التروتة.

خرج السيد الشاب من الفندق وسأله عن القصبتين. هل ستلحق بهما زوجته؟ قال بيدوزي: «نعم. لتلحق بنا». عاد السيد الشاب إلى الفندق وتحدث إلى زوجته. وانطلق هو وبيدوزي بالسير على الطريق. كان السيد الشاب قد علّق حقيبة صغيرة على كتفه. رأى بيدوزي الزوجة، التي بدت في نفس سن السيد الشاب، تنتعل جزمة جبلية وتعتمر قبعة بيريه زرقاء، وقد انطلقت خارجة لتلحق بهما على الطريق، حاملة قصبتي صيد غير مربوطتين في كل يد من يديها. لم يحب بيدوزي أن يراها تمشي وراءهما هناك. صاح وهو يغمز بعينيه للسيد الشاب: سينيورينا، تعالي وسيري معنا. تعالي هنا يا سينيورا. لنمشِ كلنا معاً. أراد بيدوزي أن يمشوا ثلاثتهم في شارع كورتينا معاً.

ظلت الزوجة خلفهما وهي تتبعهما متجهمة الوجه إلى حد ما. ونادى عليها بيدوزي برقة «تعالي وامشي معنا». التفت السيد الشاب إلى الخلف وصرخ بشيء ما. كفت الزوجة عن التلكؤ لحقت بهما.

حيّا بيدوزي كل شخص قابلوه سائراً في شارع المدينة الرئيسي

باحترام مدروس قائلاً : «يوم سعيد يا أرتورو»، لامساً قبعته. حملق موظف المصرف إليه من باب مقهى الفاشيين. حدّقت مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص يقفون أمام الدكاكين فيهم ثلاثتهم. رفع العمال، المرتدون سترهم المغبرة بذرور الحجارة والعاملون في أساسات الفندق الجديد، أنظارهم نحو الثلاثة حين مروا بهم. ولم يتكلم أو يشير إليهم أحد ما عدا شحاذ المدينة وهو شخص هزيل عجوز بلحية كثّة مبللة ببصاقه الذي رفع قبعته حين مروا به.

وقف بيدوزي أمام مخزن امتلأت نافذة واجهته بزجاجات وأخرج زجاجة الجرابا الفارغة من جيب معطفه العسكري القديم. «قليل من الشراب، بعض المارسالا للسينيورا شيء، أي شيء للشراب». أشار بزجاجته. كان يوماً مدهشاً ـ «مارسالا تحبين المارسالا يا سينيورينا؟ قليلاً من المارسالا؟».

وقفت الزوجة متجهمة الوجه. قالت: «عليك أن تقدم تفسيراً لهذا. لا أفهم كلمة مما يقوله. إنه سكران، أليس كذلك؟».

بدا بأن السيد الشاب لا يسمع بيدوزي. كان يفكر، ما الذي يجعله يقول مارسالا بحق الجحيم؟ إنه الشراب الذي يشربه ماكس بيربوهم.

قال بيدوزي أخيراً وهو يمسك بكم السيد الشاب :

ـ نقود. ليرات.

ابتسم نافراً من الإلحاح على هذا الموضوع، غير أنه كان بحاجة إلى دفع الشاب إلى العمل.

أخرج السيد الشاب محفظة جيبه وأعطاه ورقة نقدية من فئة العشر ليرات. ارتقى بيدوزي الدرجات إلى باب دكان متخصص بالخمرة المحليةوالأجنبية. كان مقفلاً.

قال شخص يسير في الشارع باحتقار:

- إنه مقفل حتى الساعة الثانية.

نزل بيدوزي الدرجاتْ. أحس بالمهانة.

قال:

- لا بأس. يمكننا شراءها من محل كونكورديا.

مشوا ثلاثتهم جنباً إلى جنب على الطريق المؤدي إلى كونكورديا. وفي شرفة مدخل كونكورديا حيث كُوِّمت الزلاّجات الصدئة، قال السيد الشاب:

- ماذا تريد؟

ناوله بيدوزي ورقة العشر ليرات مطوية عدة مرات. وقال وهو يحس بالحرج:

- لا شيء. أي شيء. مارسالا. ربما. لا أعرف. مارسالا؟

أغلق باب كونكورديا وراء السيد الشاب وزوجته. وقال السيد الشاب للفتاة الواقفة خلف نضد المعجنات «ثلاث مارسالا»، سألت: «تعني اثنين»؟ قال «لا، واحدة لرجل عجوز» قالت: «أوه واحدة لرجل عجوز» وضحكت وهي تنزل الزجاجة. صبَّتْ سائلاً يشبه الطين في ثلاث كؤوس. كانت الزوجة تجلس إلى الطاولة تحت خط الجرائد المثبتة على عصي. وضع السيد الشاب إحدى

كؤوس المارسالا أمامها. قال: «يمكنك أن تشربيها أيضاً، وقد تجعلك تشعرين بتحسن». جلست ونظرت إلى الكأس. خرج السيد الشاب من الباب ومعه كأس لبيدوزي ولكنه لم يره.

قال وهو يعود إلى غرفة المعجنات وهو يحمل الكأس:

- لا أدري أين هو.

قالت الزوجة:

- طلب ربعاً منه.

سأل السيد الشاب الفتاة:

- كم سعر ربع لتر؟

- من الأبيض Bianco ؟ ليرة واحدة.

قال:

- لا. من المارسالا. ضعي هذين الكأسين فيها أيضاً.

وأعطاها كأسه والأخرى التي صبّها لبيدوزي. ملأت مقياس خمر لربع لتر بالقمع.

قال السيد الشاب:

- زجاجة لنضعه فيها.

ذهبت تبحث عن زجاجة. لقد أُدخل كل هذا السرور إلى نفسها.

قال:

- آسف لشعورك بالعفونة يا صغيرتي. آسف على تحدثي إليك

بالطريقة التي تحدثت بها عند الغداء . كان كل منا يرمي إلى نفس الموضوع من زاوية مختلفة .

قالت :

- لا يشكل أي فرق . لا شيء منه يشكل فرقاً .

سأل :

- هل تشعرين ببرد شديد؟ ليتك ارتديت معرقاً آخر .

- أرتدي ثلاث معارق .

دخلت الفتاة بزجاجة بنية رفيعة جداً وصبّت المارسالا فيها . دفع السيد الشاب خمس ليرات أُخرى . خرجا من الباب . كانت الفتاة متجهمة . وكان بيدوزي يذرع الطريق ذهاباً وإياباً عند الطرف الآخر من الطريق بعيداً عن مجرى الريح وهو يحمل القصبتين .

قال :

- هيا . سأحمل القصبتين . ما الفرق الذي يشكله رؤية شخص ما لهاتين القصبتين؟ لن يزعجنا أحد . لن يثير أي شخص أية متاعب لي في كورتينا . أنا أعرفهم في البلدية . فقد كنتُ جندياً . الجميع في هذه المدينة يحبونني . أنا أبيع الضفادع . ماذا سيحدث لو كان صيد السمك ممنوعاً؟ لا شيء . لا شيء لا متاعب . أُعلمكما ، سمك تروتة كبيرة الكثير منه . مَشوا هابطين التل نحو النهر . وخلّفوا المدينة وراءهم . هبطت الشمس وكانت السماء ترش مطراً .

قال بيدوزي مشيراً إلى فتاة في مدخل باب بيت مرّوا به :

ـ هناك ـ تلك التي تقف هناك، هي طفلتي.

قالت الزوجة:

ـ طبيبة، هل يجب عليه أن يرينا طبيبه؟

قال السيد الشاب:

قال طفلته.

دخلت الفتاة إلى البيت وبيدوزي يشير بيده.

مشوا هابطين التل عبر الحقول ثم داروا ليتبعوا ضفة النهر. تكلم بيدوزي بسرعة بكثير من الغمز والمعرفة. وفيما كانوا يمشون ثلاثتهم جنباً إلى جنب التقطت زوجته أنفاسه عبر الريح. لكزها مرة في أضلعها. وكان يتحدث أحياناً بلهجة أمبيزو وأحياناً بلهجة ألمانية تايرولير. لم يكن يعرف أي اللهجتين كان الشاب وزوجته يعرفانها ويفهمانها بشكل أفضل، لذلك كان مزدوج اللغة في حديثة. ولكن، حين قال السيد الشاب يا، يا، قرر بيدوزي أن يقصر كلامه على لهجة تايرولير. لم يفهم السيد الشاب والزوجة شيئاً.

ـ رآنا جميع من في المدينة ونحن نعبر المدينة حاملين القصبتين. من المحتمل أن نكون متبوعين بشرطة الصيد الآن. وأتمنى أن لا نتورط في هذا. وهذا الأبله اللعين سكران جداً أيضاً.

قالت الزوجة:

ـ طبعاً وليس لديك الشجاعة الكافية للرجوع، من الطبيعي أن تواصل ما بدأته.

ـ لم لا تعودي أنت؟ عودي يا صغيرتي.

ـ سأبقى معك . إن دخلت السجن فإننا قد ندخله معاً .

داروا دورة حادة أسفل ضفة النهر ووقف بيدوزي ومعطفه يتطاير مع الريح مشيراً إلى النهر . كان بني اللون موحلاً . وبعيداً على اليمين تجمعت كومة قمامة .

قال السيد الشاب :

ـ قل لي هذا باللغة الإيطالية .

ـ نصف ساعة . نصف ساعة فقط Un' mezz'ora, Pia' d'un' mezz'ora (*) .

ـ يقول بعد نصف ساعة على الأقل . عودي يا صغيرتي . ستبردين في هذه الريح . إنه ليوم عفن ولن نجد فيه أية متعة على أي حال من الأحوال .

قالت :

ـ حسناً .

وتسلقت صاعدة الضفة المعشبة .

كان بيدوزي في الأسفل في النهر ولم يلاحظها حتى كادت أن تختفي عن الأنظار في القمة . صاح :

ـ Frau . فراو، فراولين . لن تذهبي .

تابعت السير على قمة التل .

قال بيدوزي :

(*) بالإيطالية في الأصل .

ـ لقد ذهبت .

لقد صدمه هذا .

نزع أربطة المطاط التي تجمع أقسام القصبات معاً وبدأ يوصل إحدى القصبتين .

ـ ولكنك قلت إنها على بعد نصف ساعة أُخرى .

ـ أوه . نعم المكان جيد على مسيرة نصف ساعة . والمكان جيد هنا أيضاً .

ـ حقاً؟

ـ طبعاً، المكان جيد هنا وجيد هناك أيضاً .

جلس السيد الشاب على أرض ضفة النهر وركّب قصبة وثبّت البكرة ومرر الخيط من أوتار الطعم . أحس بالقلق والخوف من أن يفاجئهم حارس الطرائد أو جماعة المواطنين العاملين على استقرار الأمن الذين قد يأتون إلى التل من المدينة في أية دقيقة . كان باستطاعته رؤية منازل البلدة وبرج الأجراس من فوق حافة التل . وفتح صندوق أوتار الطعم . وانحنى بيدوزي ودفع ابهامه وسبابته الصلبين المنبسطين في داخل الصندوق وشبك قواعد الطعوم الرطبة .

ـ ألديك بعض الرصاص؟

ـ لا .

ـ يجب أن يكون لديك بعض الرصاص .

كان بيدوزي منفعلاً .

ـ يجب أن يكون لديك رصاص . Piombo رصاص . قليل من الرصاص . هنا تماماً فوق الصنارة تماماً وإلا طفا الطعم على سطح الماء . يجب أن يكون لديك قليل من الرصاص .

ـ ألديك شيء منه؟

ـ لا .

بحث في جيوبه منقباً بيأس في أوساخ قماش البطانة داخل جيوبه العسكرية .

ـ لا أملك منه شيئاً . يجب أن نحصل على رصاص .

قال السيد الشاب :

ـ لن نستطيع صيد السمك إذاً .

ثم فك قطع القصبة عن بعضها وأعاد لف الخيط على البكرة خلال أوتار الطعم .

ـ سنحصل على بعض الرصاص ونصيد السمك غداً .

ـ ولكن اسمع يا عزيزي . يجب أن تحصل على بعض الرصاص . سيبقى الخيط طافياً على سطح الماء .

كان نهار بيدوزي ينهار أشلاء أمام عينيه .

ـ يجب أن تحصل على بعض الرصاص . قليل منه يكفي . أدواتك كلها جيدة وجديدة ولكنه لا يوجد معك رصاص . كان يمكنني جلب بعض الرصاص، قلت بأن لديك كل شيء .

نظر السيد الشاب إلى الجدول الـذي أفقـده الثلـج الذائـب لونه . قال :

ـ أعرف . سنحصل على بعض الرصاص وسنصطاد السمك غداً .

ـ في أية ساعة من الصباح؟ قل لي .

ـ في الساعة السابعة .

طلعت الشـمس . كان الـطقس دافئاً ومبهجـاً . أحس السيد الشاب بالإرتياح . لم يعد يخالف القانون . وبعد أن جلس علـى ضفـة النهـر، أخـرج زجاجـة المارسـالا من جيبـه وناولهـا إلـى بيدوزي . أعادها بيدوزي . شرب السيد الشاب جرعة منها وناولها إلـى بيدوزي مرة أُخـرى . أعادهـا بيدوزي مرة أُخـرى . قال : «اشرب اشرب إنها مارسالا» . وبعد أن شرب جرعة صغيرة ناوله الشاب الزجاجـة . وكان بيدوزي يراقبهـا بدقـة . أخـذ الزجاجـة بسرعة وأمالها وهي مرفوعة إلى أعلى . اهتزت شعرات بيضاء في ثنيات رقبته وهو يشـرب وعينـاه مثبتتان علـى قاع الزجاجـة البنية الضيقة . شربها كلها . سطعت الشمس فيما كان يشـرب . كانـت مدهشة . كان هذا اليوم رائعاً، رغم كل ما جرى . إنه يوم مدهش .

نادى على السيد الشاب :

ـ اسمع يا عزيزي (Senta Caro) في الصباح في الساعة السابعة .

دعا السيد الشاب يا عزيزي عدة مرات ولـم يحـدث شيء . كانت مارسالا جيدة . لمعت عيناه . ستمر عليه أيام أُخـرى كهـذا اليوم في المستقبل . ستبدأ في الساعة السابعة صباحاً .

انطلقا يمشيان صاعدين التل نحو البلدة. كان الشاب يتقدمه، كان قد وصل إلى مسافة بعيدة عنه على التل. نادى عليه بيدوزي.

- اسمع، يا عزيزي. هل تعطيني خمس ليرات كعربون؟

سأل السيد الشاب عابساً:

- عن اليوم؟

- لا. ليس عن اليوم. أعطنيها اليوم عن الغد. سأعد كل شيء للغد. الخبز والسلامي والجبن، من النوع الجيد لنا كلنا. أنت وأنا والسيدة. طعم لصيد السمك، من سمك المينوه، وليس ديداناً فقط. وربما أمكنني الحصول على بعض المارسالا. كل هذا بخمس ليرات. خمس ليرات كعربون.

فحص السيد الشاب محفظة جيبه وأخرج ورقة من فئة الليرتين وقطعتين كل منهما من فئة الليرة.

قال بيدوزي بلهجة عضو في نادي كارلتون متقبلاً جريدة المورنينج بوست من عضو آخر.

- أشكرك يا عزيز. أشكرك.

هذه هي الحياة. لقد انتهى من حديقة الفندق وتكسير السماد المتجمد بشوكة الروث. وها هي الحياة تفتح ذراعيها له.

قال مربتاً على ظهر السيد الشاب:

- حتى الساعة السابعة يا عزيزي. في الساعة السابعة تماماً.

قال السيد الشاب وهو يعيد محفظته إلى جيبه :

ـ قد لا أذهب .

قال بيدوزي :

ـ ماذا؟ سأحضر مينوه يا سيدي . وسلامي وكل شيء . أنت وأنا والسيدة ثلاثتنا .

قال السيد الشاب :

ـ قد لا أذهب ، من المحتمل جداً أن لا أذهب . سأترك رسالة عند المدير في مكتب الفندق .

ثلج عبر الريف

لو حدث هذا أمامك تماماً، لأمكنك رؤية فيلالتا يزمجر على الثور ويشتمه، وحين هجم الثور دوّم دائراً إلى الخلف بقوة مثل شجرة بلوط تصدمها الريح، ورجلاه مثبتتان معاً والموليتا Muleta تجرجر على الأرض والسيف يلاحق المنحنى وراءه، ثم شتم الثور وأرجح الموليتا أمامه ودوّم متراجعاً عن الهجوم وقدماه ثابتتان بقوة والموليتا تنحني وعند كل تدويمة كان الجمهور يصرخ. وحين شرع بقتله، حدث هذا كله بنفس الإندفاع. والثور ينظر إليه مباشرة بكراهية. سحب السيف من ثنيات الـ «موليتا» وهو ينظر إلى الثور أثناء قيامه بنفس الحركة وصاح بالثور: «تورو! تورو!» وهجم الثور وهجم فيلالتا، وللحظة من الزمن أصبحا كتلة واحدة. أصبح فيلالتا كتلة واحدة مع الثور ثم انتهى الأمر. كان فيلالتا يقف منتصب القامة ومقبض السيف الأحمر يبرز كامد اللون بين كتفيّ الثور. وقف فيلالتا وهو يرفع يده عالياً نحو الجمهور والثور يخور نافثاً دماً ناظراً إلى فيلالتا مباشرة وأرجله تنهار من تحته.

* * *

ارتجت عربة سكة الحديد المعلّقة مرة أُخرى ثم توقفت. لم تستطع التقدم إلى مسافة أبعد، وانجرف الثلج صلباً عبر الدرب. هبّت ريح عاصفة على سطح الجبل المكشوف وكنست سطح الثلج حتى أصبح متصلّب القشرة أملس. دفع نيك. وهو يمسح الزلاجتين الموجودتين في عربة المتاع بالشمع، جزمته داخل الأصابع الحديدية وأقفل المشبك عليهما بإحكام. قفز من العربة جانباً إلى لوح الريح الصلب وقام بدورة قافزة ثم انزلق منتصباً إلى أسفل المنحدر وهو يقرفص ويجر عضويه.

وعلى الثلج الأبيض في الأسفل. غطس جورج وارتفع ثم غطس مبتعداً عن الأنظار. نزع الإندفاع والإنقضاض الفجائي من ذهن نيك، وهو يسقط في تموج منحدر على سفح الجبل، كل أفكاره الأخرى وترك له فقط الطيران المدهش والإحساس بالسقوط. ارتفع ليقوم باندفاع طفيف عمودي إلى أعلى وبدأ الثلج يسقط مبتعداً من تحته وهو يهبط إلى الأسفل والأسفل بسرعة أكبر وأكبر باندفاع إلى أسفل المنحدر الأخير العميق الطويل الشديد الإنحدار. وفيما كان يقرفص وكأنه يكاد يجلس مائلاً إلى الخلف على الزلاّجتين محاولاً أن يبقى مركز الثقل منخفضاً والثلج يندفع مثل عاصفة رملية، عرف بأن السرعة كانت أكبر مما يجب أن تكون. لكنه حافظ على نفس السرعة. لن يرخي قبضته ويسقط. ثم أسقطته بقعة من ثلج لين، جمعتها الريح في فجوة وانقلب مرات عديدة والزلاجتان تتصادمان وتقرقعان وهو يحس كأرنب أُصيب بطلقة، ثم غُرز في مكانه ورجلاه متصالبتان وزلاجتاه تنتصبان قائمتان وامتلأ أنفه واذناه بالثلج.

وقف جورج على مسافة قصيرة أسفل المنحدر وهو ينفض الثلج عن سترة الريح بضربات قوية .

صاح قائلاً لنيك :

ـ كـنت رائعاً يا مايك . إنه ثلج طري قذر . لقد انهار الثلج من تحتي بنفس الطريقة . كيف كان تجاوز الوهدة؟

ركل نيك زلاجتيه إلى جانبه فيما هو يتمدد على ظهره ثم نهض واقفاً .

ـ عليك أن تحافظ على يسارك . إنها حركة هبوط سريعـة رائعـة مع حركة كريستي(*) في القاع لوجود سياج .

ـ انتظر ثانية وسنقوم بهذا معاً .

ـ لا . اذهب أولاً . أُحب أن أراك تعبر الوهاد .

تقدم نيك آدمز أمام جورج وظهره الكبير ورأسه الأشقر لا يزالان مغطيين بالقليل من الثلج ، ثم بدأت زلاجتاه تنزلقـان علـى الحافـة واندفع إلى الأسفل مطلقاً صوت هسهسة في مسحوق الثلج البلوري وقد بدا كأنه يطفو إلى الأعلى والأسفل وهو يصعد ويهبط الوهـاد . حافظ على يساره في النهاية وهو يندفع نحو السياج وألقى ركبتيه وهما ملتصقتان معاً بإحكام ومديراً جسده مثـل إدارة مسمـار لولبـي وأدار زلاجتيه دورة حادة إلى اليمين مثيراً سحابة من الثلج ثم أبطأ منقصاً سرعته الموازية لسفح التل وسياج الأسلاك .

(*) كريستي : نوع من الإلتفاف يتم في تدويم الجسم في وضع القرفصـاء حتـى يدير الزلاجتين إلى اتجاه جديد أو يتوقف بسرعة هائلة . (قاموس ويستير) .

رفع نظره إلى التل. كان جورج يهبط بحركة تيليمارك(*) وهو يركع بدفع رجل من رجليه إلى الأمام وثنيها ومجرجراً الرجل الأخرى، وعصواه تتدليان كساقي حشرة دقيقتين وتثيران غبار ثلج حالما تلمسان السطح، وأخيراً دارَ كامل الجسم الراكع المتجرجر بانعطاف صحيح جميل وهو يقرفص والرجلان تندفعان إلى الأمام والخلف والجسم يميل خارج دورته التدويمية والعصوان تحددان المنحنى مثل نقاط ضوء، كل هذا في سحابة عنيفة من الثلج.

قال جورج:

- كنت خائفاً من القيام بحركة كريستي، فالثلج أعمق من اللازم، كنت رائعاً.

قال نيك:

- لا أستطيع القيام بحركة تيليمارك برجلي.

دفع نيك بقمة جديلة سلك السياج بزلاجته إلى أسفل وانزلق جورج فوقه. تبعه نيك إلى أسفل الطريق. اندفعا هابطين على طول الطريق، منحني الركب، إلى غابة صنوبر. أصبح الطريق ثلجاً صقيلاً تتناثر عليه بقع صفراء بلون البرتقال والتبغ خَلّفتها حيوانات نقل زنود خشب. واصلا التزلج على امتداد الثلج المتراكم على الجانب. غطس الطريق بحدة نحو جدول، ثم جرى باستقامة صاعداً التل. وفي الغابة رأيا مبنى طويلاً ذا أفاريز منخفضة أثّرت

(*) تيليمارك: دورة فجائية على الزلاجة الخارجية، مورست لأول مرة في تيليمارك في النرويج (قاموس تشامبيرز).

عليه تقلبات الطقس. بدا من خلال الأشجار أصفر باهتاً. وعلى قرب منه، بدت إطارات النوافذ مطلية بالأخضر. كانت طبقة الطلاء تتقشّر وتسقط. فك نيك مشابك زلاجتيه بإحدى عصوي الزلاجتين وركل الزلاجتين بعيداً.

قال:

- يمكننا حملها إلى أعلى أيضاً.

تسلق الطريق المنحدر والزلاجتين على كتفه، غارساً مسامير عقبيه في الأرضية الثلجية. سمع جورج يتنفس ويضرب بعقبيه وهو خلفه تماماً. وضعا الزلاجتين على جانب النزل ونفضا الثلج عن بنطاليهما، وخبطا جزمتيهما في الأرض حتى تساقط الثلج عنهما، ودخلا.

كان داخل النزل مظلماً تماماً. وشع موقد خزفي كبير في ركن الغرفة. كان السقف منخفضاً. ووضعت مقاعد خشبية طويلة ملساء خلف طاولات سمراء ملطخة بالنبيذ على كل جانب من جوانب الغرف. جلس سويسريان يدخنان غليونين وقد وُضعت كأسان من النبيذ السحابي اللون الجديد إلى جانب الموقد. خلع الفتيان سترتيهما وجلسا متكئين على الجدار في الجانب الآخر من الموقد. توقف صوت في الغرفة المجاورة عن الغناء ودخلت فتاة ترتدي مريلة زرقاء من الباب لترى ما كانا يريدان تناوله من شراب.

قال نيك:

- قنينة سيون. هل هذا مناسب يا جيدج؟

قال جورج :

ـ بالتأكيد . أنت تعرف عن النبيذ أكثر مني . أُحب أي نوع منه .

خرجت الفتاة .

قال نيك :

ـ ليس هناك من شيء يمكن أن يصل إلى روعة التزلج ، أليس كذلك؟ يا للشعور الذي يراودك حين تسقط لأول مرة بعد جري طويل .

قال جورج :

ـ هوه . إنه لرائع جداً الحديث عنه .

أحضرت الفتاة النبيذ ووجدوا صعوبة في نزع سدادة القنينة . وأخيراً فتحها نيك . خرجت الفتاة وسمعاها تغني بالألمانية في الغرفة المجاورة .

قال نيك :

ـ لا تؤثر تلك النتف من السدادة فيها .

ـ أتساءل إن كان عندها أي كعك .

ـ لنر .

دخلت الفتاة ولاحظ نيك بأن المريلة تغطي حملها على نحو رائع . استغرب كيف إنني لم أر ذلك حين دخلت أول مرة .

سألها :

ـ ماذا كنت تغنين؟

- أوبرا . أوبرا ألمانية .

لم تكن متلهفة على مناقشة الأمر .

- عندنا بعض فطائر التفاح ، إن كنتما تريدان بعضها .

قال جورج :

- أوه . نعم إنها لا تعرفنا وربما ظنت بأننا سنسخر منها لغنائها . إنها من هناك حيث يتكلمون الألمانية على ما هو محتمل ، وهي شديدة الحماسة لوجودها هنا ، كما وأنها حامل بذلك الطفل الذي سيحل دون أن يعقد زواجها وهي شديدة الحساسية .

- كيف عرفت بأنها غير متزوجة؟

- لا خاتم . يا للجحيم ، لا تتزوج فتاة هنا إلا بعد أن تحمل .

فتح الباب ودخلت مجموعة من قاطعي الأخشاب من أعلى الطريق ، خابطين جزماتهم ونافثين بخار ماء في الغرفة . أحضرت النادلة ثلاث لترات من النبيذ الجديد للمجموعة وجلسوا إلى الطاولتين ، مدخنين وهادئين ، وقد خلعوا قبعاتهم ومالوا بظهورهم إلى الخلف متكئين على الحائط أو انحنوا إلى الأمام على الطاولة . وفي الخارج ، أطلقت الخيول المربوطة بالزحافات الخشبية جلجلة حادة من الأجراس من وقت إلى آخر وهي تهز برؤوسها بشدة .

كان نيك وجورج سعيدين . كانا مغرمين ببعضهما . ويعرفان أن طريق العودة إلى الوطن كان يمتد أمامهما .

سأل نيك :

- متى يجب أن تعود إلى المدرسة؟

أجاب جورج :

- الليلة . يجب أن آخذ قطار العاشرة والأربعين من مونترو .

- يا ليتك تبقى ونقوم بـ «دينت دو ليس» غداً .

قال جورج :

- يجب أن أتعلم . آه يا مايك، ألا تتمنى لو كان باستطاعتنا التصعلك فقط. نأخذ زلاجاتنا ونسافر في القطار إلى حيث يوجد تزلج جيد ونواصل سيرنا وننزل في فنادق عامة ونتابع رحلتنا إلى أوبيرلاند ثم شمالاً إلى فاليه ثم عبر انجادين ونأخذ صندوق عدة التصليح ومعارق ومنامات إضافية في حقيبتي ظهرينا دون أن نبالي بالمدرسة ولا نلتفت إلى أي شيء .

- نعم . ونعبر شفارزفولد بتلك الطريقة . أوه، تلك الأماكن الرائعة .

- ذلك هو المكان الذي ذهبت إليه لصيد السمك، في الصيف الماضي، أليس كذلك؟

- نعم .

أكلا فطيرة التفاح وشربا باقي النبيذ .

مال جورج بظهره واتكأ على الجدار وأغلق عينيه .

قال :

- يثير النبيذ فيّ هذا الإحساس دائماً .

سأل نيك :

- أتحس بتوعك؟

- لا . أنا بحالة جيدة، ولكنني منشرح .

قال نيك :

- أعرف هذا .

قال جورج :

- بالتأكيد .

سأل نيك :

- أنأخذ قنينة أُخرى؟

قال جورج :

- ليس لي .

جلسا هناك ونيك يتكيء بمرفقيه على الطاولة وجورج يسترخي إلى الخلف متكئاً على الجدار .

قال جورج وهو يهبط إلى الطاولة من الجدار :

- هل ستضع هيلين طفلاً؟

- نعم .

- متى؟

- في أواخر الصيف القادم .

- أأنت سعيد؟

- نعم . الآن .

- هل ستعود إلى الولايات المتحدة؟

- أظن هذا .

- أتريد ذلك؟

- لا .

ـ أتريد هيلين ذلك؟

ـ لا .

جلس جورج صامتاً . نظر إلى الزجاجة الفارغة والكأسين الفارغين .

قال :

ـ جحيم ، أليس كذلك؟

قال نيك :

ـ لا أدري .

قال جورج :

ـ هل ستقومان برحلة تزلج معاً في الولايات المتحدة؟

قال نيك :

ـ لا أدري .

قال جورج :

ـ ليست الجبال كثيرة هناك .

قال نيك :

ـ لا . إنها كثيرة الصخور جداً . وفيها الكثير جداً من الأشجار، وهي بعيدة جداً .

قال جورج :

ـ نعم . ذلك هو الحال في كاليفورنيا .

قال نيك :

ـ نعم . ذلك هو الحال في كل مكان زرته .

قال جورج :

ـ نعم . ذلك هو الحال .

نهض السويسريان واقفين ودفعا حسابهما وخرجا .

قال جورج :

ـ ليتنا كنا سويسريين .

قال نيك :

ـ كلهم مصابون بتضخم الغدة الدرقية .

قال جورج :

ـ لا أُصدق هذا .

قال نيك :

ـ ولا أنا .

ضحكا .

قال جورج :

ـ ربما لن نذهب للتزلج مرة أُخرى .

قال نيك :

ـ يجب أن نذهب . لا تساوي الحياة شيئاً إن لم نتمكن من ذلك .

قال جورج :

ـ سنذهب للتزلج . أليس كذلك؟

وافق نيك على قوله :

ـ يجب أن نذهب للتزلج .

قال جورج :

ـ ليتنا نستطيع إعطاء وعد بهذا .

نهض نيك واقفاً. زرر سترة الريح بإحكام. انحنى من فوق جورج وأخذ عمودي الزلاجتين من عن الجدار. غرس أحد عمودي الزلاجتين في أرضية الغرفة.

قال:

- لا فائدة من إعطاء وعد.

فتحا الباب وخرجا. كان البرد شديداً. وكانت طبقة الثلج الخارجية قد قست. وجرى الطريق إلى أعلى التل بين أشجار صنوبر.

انزلا زلاجتيهما من المكان الذي أُسندتا فيه على جدار النزل ثم ارتدى نيك قفازيه. كان جورج قد شرع يصعد الطريق وزلاجتاه على كتفيه. والآن، سيشرعان بالإنطلاق برحلة العودة إلى الوطن معاً.

أبي

سمعت قرع الطبول يصل من الشارع ثم تبعه صوت النايات والمزامير ثم وصلوا إلى الركن والكل يرقص. غص الشارع بهم. رآه «مايرا» ثم رأيته أنا.

حين أوقفوا العزف للراحة تكوّم في الشارع معهم كلهم وحينما بدأوا بالعزف من جديد قفز ليرقص في الشارع معهم. كان سكراناً تماماً.

قال مايرا:

- إلحق به، إنه يكرهني.

وهكذا دهبت ولحقت بهم وأمسكت به فيما كان يجلس القرفصاء بانتظار انطلاق الموسيقى من جديد، وقلت له:

- تعال يا لويس. من أجل المسيح، ستواجه الثيران بعد ظهر اليوم.

لم يصغِ إليّ، كان يصيخ السمع لالتقاط إشارة الإنطلاق.

قلت:

ـ لا تكن أبلهاً لعيناً يا لويس . لنرجع إلى الفندق .

ثم بدأت الموسيقى تعزف من جديد، قفز والتوى مبتعداً عني وبدأ يرقص .

امسكت بذراعه فتحرر، وقال :

ـ أوه . دعني وشأني . أنتَ لست أبي .

عدت إلى الفندق وكان مايرا في الشرفة يشرئب بعنقه ليرى إن كنت أرجعته معي . دخل الفندق حين رآني وهبط الدرج مشمئزاً .

قلت :

ـ حسناً . بعد كل هذا، ما هو إلا مكسيكي متوحش جاهل .

قال مايرا :

ـ نعم . ومن سيقتل ثيرانه حين يصارع؟

قلت :

ـ نحن على ما أظن .

قال مايرا :

ـ نعم . سنقتل ثيران المتوحشين وثيران السكارى وثيران راقص «راياو ـ راياو» . نعم . نحن سنقتلها من غير ريب . نعم . نعم . نعم .

* * *

أظن وأنا أنظر إلى الأمر الآن بأن أبي يظهر لي كفتى سمين، وواحد من هؤلاء الفتيان السمان الممتلئين الصغار الذين تراهم حولك

في كل مكان، غير أنه، من المؤكد، لم يتخذ ذلك الشكل خلال المدة الأخيرة من نهايته ولم يكن ذلك خطأه، فهو يركب الخيل لقفز الحواجز فقط، وكان يمكنه الظهور بالمظهر اللائق حينذاك. أذكر الطريقة التي كان يرتدي فيها قميصاً مطاطياً فوق زوج من الكنزات وقميص عَرَق كبير فوقها ويطلب مني أن أجري معه قبل الظهر تحت الشمس الحارة. وقد يقوم برحلة تجريبية مرتدياً أحد جلود «رازو» في الصباح الباكر بعد وصوله تماماً من تورينو في الساعة الرابعة صباحاً متجولاً بها خارجاً إلى الإسطبلات في عربة، ومن ثم، وحين يغطي الندى كل شيء وتكون الشمس على وشك البزوغ، أساعده على خلع جزمته ويقوم هو بانتعال حذاء مطاط خفيف وكل هذه المعارق وننطلق خارجين.

سيقول:

- هيا يا بني.

وهو يخطو إلى الأمام وإلى الخلف على أطراف أصابع قدميه أمام غرفة تغيير ملابس الركوب.

- لنتحرك.

ثم نبدأ بالإهتزاز من مكان إلى آخر في داخل حقل وقد تقدمني مرة وهو يجري ويجري ثم يدور خارجاً من البوابة ويسير على واحد من تلك الطرق وكل الأشجار تصطف على طول جوانب هذه الطرق التي تنطلق خارجة من سان سيرو. وأتقدمه حين نصل إلى الطريق، وكان يمكنني الجري جرياً حسناً حينذاك وأنظر حولي وهو يسير بيسرٍ

ورائي تماماً . وبعد فترة قصيرة أنظر حولي مرة أُخرى ويبدأ هو بإفراز العرق ويلحق بي وهو يفرز العرق وعيناه على ظهري وحين يفاجئني أنظر إليه يعبس ويقول : «إنني أتصبب عرقاً؟» . حين يعبس والدي لا يستطيع أي شخص منع نفسه من العبوس أيضاً . ونستمر بالركض نحو الجبال ، وحينئذٍ يصيح والدي : «هاي جو» وانظر إلى الخلف فأجده يجلس تحت شجرة وفوطة تحيط خصره ورقبته .

أعود إليه وأجلس إلى جانبه ويجذب حبلاً من جيبه ويبدأ بالقفز فوق الحبل تحت الشمس والعرق يتصبب من وجهه ويقفز فوق الحبل في الغبار الأبيض والحبل يدور ويدور مفرقعاً والشمس تزداد حرارة وهو يقفز فوق الحبل بقوة أكبر ذاهباً آيباً فوق الطريق . إنني أقول بأن من الممتع أن أرى والدي يقفز على الحبل أيضاً . ويستطيع أن يجعله يئز بسرعة أو يثب عليه ببطء وبشكل خيالي . وكنا نرى المتشردين ينظرون إلينا أحياناً حين يمرون بنا وهم يتجهون إلى المدينة مشياً على الأقدام على الطريق مع ثيران بيضاء مخصّية تجر العربة . من المؤكد بأنهم كانوا يلقون نظراتهم إلينا وهم يظنون بأن الرجل العجوز مخبول . كان يجعل الحبل يئز حتى أنهم كانوا يقفون ساكنين ليراقبوه ثم يصرخون حاثين ثيرانهم وينخزونها بمهاميزهم حتى تواصل السير مرة أُخرى .

وحين أجلس وأُراقبه يقفز فوق حبل تحت الشمس الحارة كنت أُحس بميل شديد نحوه على نحو مؤكد . لقد كان يثير المرح ويقوم بالقفز بقوة أكبر حتى ينهي هذا القفز بأزيز متتابع ،كان يدفع العرق على وجهه ليسيل كما لو كان ماء ثم يرمي بالحبل إلى شجرة ثم يقترب

مني ويجلس معي ويتكيء بظهره على الشجرة والفوطة ومعرق يلتف حول رقبته.

يقول:

ـ من المؤكد بأنها طريقة صعبة للتخفيف من الوزن يا جو.

ثم يتكيء بظهره ويغلق عينيه ويأخذ نَفَساً طويلاً وعميقاً.

ـ ليس الحال كما كنت وأنا شاب.

ثم ينهض، وقبل أن يبرد عرقه نقفز راكضين إلى الإسطبلات. تلك كانت الطريقة لتخفيف الوزن. كان قلقاً طيلة الوقت. يستطيع أغلب الفرسان الركوب على خيولهم مبتعدين بها إلى أي مكان يريدون الوصول إليه. ويفقد الفارس حوالي الكيلوجرام في كل مرة يركب فيها جواداً ولكن والدي كان نوعاً جافاً من الرجال ولم يكن يمكنه التخلص من كيلوجرامات وزنه دون أن يقوم بكل هذا الجري والقفز.

إنني أذكر في سان سيرو الفارس ريجولي، وهو رجل غريب الأطوار ضئيل الحجم كان يعمل فارس سباق لـ «بوزوني» وقد خرج من ساحة تدريب الخيل إلى مشرب ليتناول شراباً بارداً وهو يخبط جزمته بسوطه بعد أن وُزن، وكان والدي قد وزن نفسه أيضاً وخرج حاملاً السرج تحت ذراعه وهو يبدو أحمر الوجه وتعباً وحجمه أكبر من ملابسه الحريرية، ووقف هناك ينظر إلى ريجولي الشاب الذي يقف أمام المشرب الخارجي وقد أنعشته المشروبات الباردة والنشاط يشع منه.

وقلت: «ما الأمر يا أبي؟»، لأنني ظننت بأن ريجولي قد صدمه أو شيئاً من هذا القبيل.

ونظر إلي ريجولي وقال: «أوه، إلى الجحيم بهذا كله». وتابع السير إلى غرفة تغيير الملابس.

حسناً، ربما كانت الأمور ستسير على ما يرام لو بقينا في ميلانو واشترك والدي في السباق في ميلانو وتورينو، لأن السباق هناك سهل: هذا إن كان يوجد سباق سهل في أي مكان. قال والدي حين ترجل في مربط الخيول الفائزة بعد سباق اعتبره الأجانب سباق حقول رهيف «بيانولا يا جو». وقد سألته مرة فقال لي: «إن هذا السباق سهل، فالسرعة هي التي تجعل قفز الحواجز خطيراً يا جو. لن نسرع هنا كما وإن الحواجز ليست سيئة هنا. ولكن السرعة هي التي تثير المتاعب دائماً وليست الحواجز».

ميدان سباق سان سيرو أروع ميدان سباق رأيته، ولكن أبي قال بأن حياتنا كانت حياة كلاب. نقضيها ذهاباً وإياباً، بين ميرافيوري وسان سيرو والركوب كل يوم تقريباً في الأسبوع وركوب القطار كل ليلتين.

غير أنني لم أكن على دراية بشؤون الخيل. كان يبدو عليها شيء ما وهي تخرج متجهة إلى العمود وهي تسير على الدرب. كان سيرها نوعاً من الحركة الراقصة وتلوح عليها نظرة متوترة والفارس يُحكم قبضته على عنانها وقد يرخي لها العناق قليلاً ويدعها تجري قليلاً وهي تسير على الدرب. وحين تصل إلى الحاجز، أحس بأن الأمور ساءت

أكثر. خصوصاً في سان سيرو بميدانها الأخضر والجبال تطل عليها من بعيد والأجنبي الذي يشير إلى بدء السباق وهو يحمل سوطه الضخم والفرسان يدورون بها من مكان إلى آخر ثم يقفزون فوق الحاجز ويقرع الجرس وتتجمع الخيل كلها على شكل مجموعة ثم تبدأ بالجري والتفرّق. أنت تعرف كيف تنطلق مجموعة من الخيل. إذا كنت تقف على منصة المشاهدين مثبتاً منظاراً على عينيك فإن كل ما تراه هو الخيول وهي تغطس مختفية عن الأنظار وتبدأ الأجراس بالرنين وتبدو كما لو انها واصلت القرع لآلاف السنين ثم تقترب برشاقة من حول الدورة. لم أر شيئاً مثل هذا في حياتي.

ولكن أبي قال في يوم ما وهو في غرفة الملابس حين كان يرتدي ملابس الخروج:

«لا تمتُّ هذه الأشياء بصلة إلى الخيل يا جو. سيقتلون هذه الخيول الهرمة للحصول على جلودها وحوافرها حين تصل إلى باريس». كل هذا في اليوم الذي فاز فيه بجائزة بريميو كوميرسيو ممتطياً الفرس لانتورنا ومنطلقاً بها خارج الميدان في آخر مائة متر كنزع فلينة من عنق قنينة.

وبعد انتهاء البريميو كوميرسيو مباشرة حزمنا أمتعتنا وغادرنا إيطاليا. وجرت مناقشة بين أبي وهولبروك وشخص أجنبي سمين يعتمر قبعة قش استمر يمسح وجهه بمنديل وقد جلسوا إلى طاولة في جاليريا. كانوا جميعاً يتكلمون الفرنسية وكانا كلاهما يطلبان من أبي شيئاً ما. وأخيراً لم يعد يقول شيئاً ولكنه جلس هناك فقط ونظر إلى

هولبروك وتابع الإثنان الإلحاح عليه وتناوب الإثنان الكلام، فأحدهما يتكلم والآخر يسكت ثم يتكلم الآخر وقد واصل الشخص الأجنبي الإعتماد على هولبروك.

قال أبي:

- اذهب واشترِ لي جريدة سبورتسمان (الرياضي) من فضلك.

وناولني عدداً من السولدي دون أن يشيح بوجهه عن هولبروك.

وهكذا خرجت من جاليريا وسرت أمام السكالا وأحضرت جريدة وعدت ووقفت على بُعد قليل منهم لأنني لم أكن أُريد أن أتدخل وكان أبي يجلس وقد دفع بجسمه إلى الخلف وهو ينظر إلى قهوته ويعبث بملعقة بينما كان هولبروك والأجنبي الضخم الجثة يقفان والأجنبي الضخم الجثة يمسح وجهه ويحرك رأسه. وتقدمت منهم وتصرّف أبي كما لو انهما لم يكونا واقفين وقال: «أتريد بوظة (آيس كريم) يا جو؟». هبط هولبروك بنظره إلى أبي وقال ببطء ووضوح: «أنت ابن كلبة». وخرج مع الأجنبي الضخم عبر الإسطبلات.

وجلس أبي هناك ورشقني بنوع من الإبتسامة ولكن وجهه كان أبيض وبدا مريضاً جداً وأحسست بالخوف والغثيان لأنني عرفت بأن شيئاً ما قد حدث ولم أتصور أن يكون بإمكان أي شخص أن يدعو والدي بابن الكلبة، ويذهب دون عقاب. فتح أبي صحيفة الرياضي ودرس سباقات العدل لفترة من الزمن ثم قال: «لا بد أن تواجه الكثير من الأمور في هذا العالم يا جو». وبعد ثلاثة أيام غادرنا ميلانو نهائياً في قطار تورين إلى باريس بعد أن بعنا في المزاد العلني أمام

اسطبلات تيرينر كل شيء لا يمكننا نقله في صندوق وحقيبة .

دخلنا باريس في الصباح الباكر من محطة طويلة قذرة قال لي أبي بأنها كانت محطة قطارات (جار دي ليون) . بدت باريس مدينة كبيرة جداً بالنسبة إلى ميلانو . فالأمر يبدو في ميلانو وكأن كل شخص يتجه إلى وجهة ما وكل الترامات تجري إلى مكان ما ولم يكن فيها أي نوع من الازدحام بينما بدت باريس وكأنها مكتومة على نفسها ولم تستقم أبداً . بدأت أُحبها ، وبالأحرى بدأت أُحب أجزاء منها ، ففيها أجمل ميادين سباق في العالم . بدا وكأن هذه الميادين هي التي تبقيها في حركة مستمرة . والشيء الوحيد الذي يثير تفكيرك هو أن الحافلات ، وهي تسير كل يوم على خطها المقرر ، تتجه أخيراً إلى خط ميادين السباق بعد عبورها كل الأماكن التي تذهب إليها . لم أعرف باريس معرفة حقيقية دقيقة لأنني كنت أدخلها مرة أو مرتين في الأسبوع مع أبي من مايزونس (Maisons) وكان يجلس دائماً في مقهى السلام Café de la Paix على جانب الأوبرا مع بقية المجموعة من مايزونس وكنت أرى بأن هذا المكان أكثر الأماكن ازدحاماً بالأشغال في باريس . ولكنه من السخف أن لا يكون لمدينة كبيرة مثل باريس جاليريا ، أليس كذلك؟

حسناً ، خرجنا من باريس لنقيم في مايزونس ـ لافيت حيث يعيش الكل ما عدا المجموعة التي تعيش في تشانتلي مع سيدة تدعى السيدة مايرز تدير مَثْوَى(*) ، إن مايزونس هي أروع مكان رأيته في

(*) مثوى : بيت يقدم الطعام والإقامة بأجرة اسبوعية أو شهرية .

حياتي ويمكنك العيش فيه . لم تكن البلدة كبيرة ولكن فيها غابة رائعة اعتدنا الذهاب إليها لنتجول هناك طيلة النهار مع بعض الفتيان ، وقد صنع لي أبي نقّافة واصطدنا فيها أشياء كثيرة ولكن أفضل ما اصطدناه كان طائر العقعق . واصطاد الصغير ديك أتكنسون بها أرنباً في يوم ما فوضعناه تحت شجرة وجلسنا على شكل دائرة وكان لدى ديك بعض السجائر وفجأة قفز الأرنب ناهضاً واندفع نحو الأجمة وطاردناه ، ولكننا لم نستطع العثور عليه . أوه، كم استمتعنا بالإقامة في مايزوس . وقد اعتادت السيدة مايرز إعطائي غدائي في الصباح وكنت أقضي طيلة النهار خارج البيت . تعلمت التحدث باللغة الفرسية بعرعة . إنها لغة سهلة .

وحالما وصلنا إلى مايزونس ، كتب أبي إلى ميلانو طالباً إرسال رخصته إليه وبقى قلقاً طيلة الوقت حتى وصلته . اعتاد الجلوس في مقهى باريس (كافيه دي باريس) في مايزونس مع الجماعة ، فقد كان هناك الكثير من الفتيان الذين تعرّف عليهم وهو ينتقل في باريس قبل الحرب والذين كانوا يعيشون في مايزونس ، كما كان لديه وقت فراغ طويل للجلوس في المقهى ، لأن عمل الفرسان في اسطبلات السباق ينتهي في الساعة التاسعة صباحاً . فهم يأخذون أول مجموعة من الخيلول للعدو بها في الساعة ٥,٣٠ صباحاً ويقومون بالنوبة الثانية من العمل في الساعة الثامنة . وهذا يعني بأنهم يستيقظون مبكرين وينامون مبكرين أيضاً . وإذا كان الفارس يعمل لشخص ما أيضاً فإنه لا يستطيع التجول من مكان إلى آخر مسرفاً بالشراب لأن المدرب يراقبه طيلة الوقت إنْ كان الفارس يافعاً وإذا لم يكن الأمر كذلك ،

فهو الذي يراقب نفسه . وفي أغلب الأحيان، وحين لا يكون لدى الفارس أي عمل يقوم به فإنه يجلس في مقهى باريس مع الجماعة . ويمكنهم كلهم الجلوس هناك لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات أمام شراب ما مثل الفيرموت والسيلتر ويتحدثون ويقصون قصصاً ويلعبون البلياردو وكأنهم في نادٍ أو في جاليريا في ميلانو. إلا أنه ليس كالجاليريا حقاً لأن الكل يدخلونه طيلة الوقت ويتنقلون فيه من طاولة إلى أُخرى .

حسناً، لقد استلم أبي الرخصة . لقد أرسلوها إليه دون تعليق، وركب الخيل عدداً من المرات . وحدث ذلك في آمينس وهي منطقة جبلية أو منطقة من هذا القبيل، غير أنه لم يرتبط بأي عقد عمل . كان الكل يحبونه وكنت حين أدخل المقهى قبل الظهر أجد شخصاً ما يتناول الشراب معه لأن أبي لم يكن متوتر الأعصاب مثل أغلب هؤلاء الفرسان الذين كسبوا أول دولار في حياتهم باشتراكهم بالسباق في معرض العالم في سانت لويس في سنة ألف وتسعمائة وأربع . ذلك ما كان يردده أبي حين كان يمزح مع جورج بيرنز . ولكن الأمر بدا وكأن الكل يتفادى إعطاء أبي فرصة للركوب والإشتراك في السباق .

كنا نخرج لنلحق بهم بالسيارة إلى كل مكان يذهبون إليه في كل يوم من مايزونس وكان هذا يثير في نفوسنا أعلى درجات المرح . كنت أحس بالسرور حين تعود الخيول من دوفيل في الصيف . مع أن عودتها هذه كانت تعني بأنه لم يعد من الممكن التجول في الغابة لأننا سنركب حينذاك متجهين إلى أنجيين أو تريبلي أو ساينت كلاود

ونشاهدها من المنصة التي يقف عليها المدربون والفرسان. لقد تعلمت الكثير عن السباق من الخروج مع تلك الجماعة. وكان الخروج يومياً إلى السباق يشيع البهجة في النفس.

أذكر يوماً خرجنا فيه إلى ساينت كلاود. كان سباقاً كبيراً جائزته الكبرى مائتا ألف فرنك يشترك فيه سبعة فرسان. وكان ووركلاود (سحابة الحرب) هو الحصان المرجّح فوزه في السباق. تجولت في ساحة تدريب الخيل لأرى الخيل التي كانت مع أبي ولم أكن قد رأيت مثل هذه الخيول من قبل. وكان هذا الحصان، ووركلاود، حصاناً هائلاً أصفر اللون لا يبدو عليه سوى أنه معد للعدو ولم أرَ حصاناً مثله في حياتي. لقد قادوه ليدور حول ساحات تدريب الخيل ورأسه مطأطىء وحين مر بي أحسست إحساساً عميقاً بأنه جميل. لم يكن يوجد مثل هذا الحصان الرائع الهزيل الصالح للعدو فقط. ودار ساحة تدريب الخيل وهو يضع قدمه بهدوء وحذر ويتحرك بيسر كما لو كان يعرف ما عليه فعله دون أن يهتز أو يقف على رجليه ويطلق نظرات وحشية مثل تلك النظرات التي تراها في عيون الخيل غير الأصيلة التي تباع بعد أن تكون قد أعطيت بَلْعة. كان الجمهور غفيراً جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أرى سوى رجليه وبعض اللون الأصفر وهو يمر عن قرب مني وقد بدأ أبي بالخروج من بين الجمهور فتبعته إلى غرفة تغيير ملابس الفرسان بين الأشجار حيث تجمع جمهور غفير هناك أيضاً. ولكن الرجل الذي كان يقف على الباب مرتدياً قبعة ديربية أومأ لأبي فدخلنا وكان كل الفرسان يجلسون هناك ويرتدون ويسحبون قمصانهم فوق رؤوسهم وجزماتهم على أرجلهم

وتفوح رائحة سخونة وعرق ومرهم من المكان. وكان الجمهور يطل ناظراً إلى الداخل.

اقترب أبي وجلس إلى جانب جورج جاردنير الذي كان يرتدي سرواله، وقال: «ما الأخبار يا جورج؟» وكانت لهجة عادية لأنه لم يكن هناك من فائدة من تحسسه الأخبار. فجورج كان يمكنه إعلامه بالأخبار أو لم يكن يمكنه ذلك.

قال جورج بصوت خفيض جداً وهو ينحني ويزرر الأزرار السفلية لسروال الركوب القصير:

- لن يفوز.

قال أبي وهو يقترب منه حتى لا يسمعه أي شخص آخر:

- من الذي لن يفوز؟

قال جورج:

- فوكسليس، وإذا فاز، فاعطني عدداً من التذاكر.

قال أبي شيئاً ما بصوت رتيب لجورج وقال جورج: «أنصحك ألاّ تراهن على أي شيء أبداً». وكانت لهجته قريبة من لهجة المزاح، وشققنا طريقنا للخروج من بين الجمهور الذي كان يطل ناظراً إلى الداخل إلى آلة تذاكر الـ ١٠٠ فرنك. عرفت بأن شيئاً خطيراً سيحدث لأن جورج كان فارس الحصان ووركلاود. ونحن في طريقنا للخروج اشترى أبي إحدى النشرات الصفراء التي تبين أسعار بدء السباق وظهر أن ووركلاود يدفع فقط ٥ إلى ١٠، وكان يليه الحصان سيفيسيدوتي بسعر ٣ إلى ١ وأظهر الترتيب الخامس في

القائمة فوكسليس بسعر ٨ إلى ١ . وراهن أبي بخمسة آلاف فرنك على فوكسليس للفوز ووضع ألف فرنك للمرتبة ودرنا راجعين إلى المدرج المسقوف لنرتقي الدرج بحثاً عن مكان نستطيع منه مراقبة السباق .

وانضغطنا في الزحام، وخرج أول الأمر رجل يرتدي معطفاً طويلاً بقبعة طويلة رمادية ويحمل سوطاً في يده ثم بدأت الخيول تخرج واحدة تلو الأخرى، وقد اعتلاها الفرسان، والأولاد العاملون بالإسطبل يمسكون باللجام على كل جانب من جانبيها ويسيرون إلى الأمام وقد تبعها المسؤول عن السباق . خرج ذلك الحصان الضخم الأصفر ووركلاود أولاً . إنه لا يبدو ضخماً جداً حين تنظر إليه أول الأمر ولكنه يبدو كذلك فقط حين ترى طول رجليه والطريقة الكلية لبنائه وطريقة حركته . يا إلهي، لم أر حصاناً مثل هذا في حياتي . كان جورج جاردنير يعتليه وسارا متقدمين ببطء خلف الفتى المسؤول المرتدي قبعة عالية صفراء والذي يسير إلى الأمام كما لو كان رئيس حلقة في سيرك . وسار وراء الحصان ووركلاود حصانٌ جميل أسود برأس رائع إعتلاه تومي أرتشيبولد مندفعاً إلى الأمام بسلاسة ومحاطاً بصفرة الشمس، وبعد الحصان الأسود سارت خمسة خيول أُخرى متحركة بهدوء على شكل موكب بمحاذاة المدرج المسقوف وساحة التدريب . قال والدي بان الحصان الأسود فوكسليس فدققت فيه النظر وكان يبدو حصاناً حسن المنظر ولكنه لا يقارن بوركلاود .

حيا الكل ووركلاود حين مر ومن المؤكد بأنه كان واحداً من

الخيول الرائعة . ودار موكبهم إلى الجانب الآخر أمام الجمهور، ثم اقترب حتى نهاية ميدان السباق . وطلب رئيس السيرك من الأولاد العاملين في الإسطبل أن يرخوا أعنة الخيل واحداً إثر الآخر حتى يمكنهم الهرولة أمام منصة المشاهدين وهم في طريقهم إلى العمود ليتيحوا الفرصة لكل شخص بأن يلقي نظرة متفحصة عليها . لم يمر على وصول الخيل إلى العمود القائم إلا لحظات قصيرة جداً حتى قرع الجرس القرصي وأمكن رؤيتها تنطلق عبر ميدان السباق مكونة مجموعة متراصة تشرع بالجري عند الدوران الأول كما لو كانت مجموعة من دمى الخيل . كنت أراقبها من خلال المنظار وكان ووركلاود يعدو على مسافة قصيرة في المؤخرة وأحد الخيول يتقدم الخيول كلها . اندفعوا إلى الأمام وداروا ثم اقتربوا وأصواتهم تتعالى ومروا بنا وكان ووركلاود في المؤخرة حين مرت الخيول بنا وكان فوكسليس في المقدمة ويجري بهدوء . ياه، إنه لأمر رهيب حين تمر الخيل بك ويكون عليك أن تراقبها وهي تبتعد ويتضاءل حجمها أكثر فأكثر وتتجمع على شكل كتلة متراصة عند الدورات ثم تقترب من أحد الجانبين المستقيمين في حلبة السباق وتشعر كما لو كنت تشتم وتشتم ثم يزداد شعورك سوءًا على سوء . وأخيراً قطعوا الدورة الأخيرة وساروا على الجزء المستقيم من ميدان السباق والحصان فوكسليس في المقدمة على مسافة واحدة من الآخرين . بدا الكل غريبي المنظر وهم يرددون «ووركلاود» بطريقة مرضية والخيل تخبط الأرض من تحتها وهي تقترب أكثر فأكثر من الجزء المستقيم من ميدان السباق ثم خرج شيء ما من المجموعة المندفعة إلى داخل منظاري

شبيهاً بحصان أصفر الرأس مخطط، وبدأ الكل يصيح : «ووركلاود» كما لو أصابهم مس. واقترب ووركلاود بأكبر سرعة رأيتها في حياتي، واقترب من فوكسليس الذي كان يعدو بالقدر الذي يستطيع حصان أسود الإسراع والفارس يسوطه بقوة ويهمز بمنخازه وسار كلاهما ورقبتاهما متوازيتان لمدة ثانية، ولكن ووركلاود بدا كأنه يعدو بسرعة تصل إلى ضعف سرعة الآخر بقفزاته العظيمة ورأسه يبرز ـ ولكنهما وصلا إلى عمود الفوز بينما كانت رقبتاهما متوازيتين وحين ارتفعت الأرقام من الشقوق كان الأول هو رقم ٢ وعنى هذا بأن فوكسليس قد فاز.

أحسست بالقشعريرة والسرور ثم انضغطنا بين الناس وهم يهبطون الدرج ليقفوا أمام اللوح حيث سيعلن عن المبلغ الذي سيدفع عن فوز فوكسليس. وبالحقيقة كنت قد نسيت المبلغ الذي راهن به أبي على فوكسليس وأنا أُشاهد السباق. وكنت أتمنى فوز ووركلاود من كل قلبي. ولكن والسباق انتهى الآن، بدا الأمر رائعاً ونحن نعرف بأننا فزنا.

قلت له :

ـ ألم يكن سباقاً رائعاً يا أبي؟

ألقى نظرة غريبة وقبعته الديربية على مؤخرة رأسه، وقال : «إنّ جورج جاردنير فارس رائع. من المؤكد أن منع الحصان ووركلاود من الفوز إحتاج إلى فارس عظيم».

من الطبيعي أنني عرفت بأن الأمر كان غريباً طيلة الوقت. ولكن

أبي وهو يذكر تلك الحقيقة بطريقته الصريحة تلك جرّد تلك الحقيقة من عنصر المفاجأة بالنسبة إليّ ولم يعاودني الإحساس بالمفاجأة أبداً حتى حين عرضوا الأرقام على اللوحة وقرع الجرس للدفع للفائزين ورأينا بأن فوكسليس يحقق قيمة ٦٧,٥٠ لكل ١٠. وردد كل من حولنا من الناس: «يا لَوركلاود المسكين، يا لوَوركلاود المسكين» وددت لو كنت فارساً أستطيع ركوبه بدلاً من ابن الكلبة ذلك. كان غريباً أن أُفكر بجورج جاردنير كابن كلبة لأنني كنت أُحبه دائماً إضافة إلى أنه ساعدنا على الفوز، ولكنني أرى بأن ذلك كان وصفه حقاً.

حصل أبي على مبلغ كبير من المال بعد ذلك السباق وواصل السفر إلى باريس مرات أكثر. لو انهم أقاموا السباق في تريمبلاي لطلب منهم إنزاله في بلدة تقع في طريق عودتهم إلى مايسونز ولجلسنا أنا وهو في الخارج أمام مقهى السلام وراقبنا الناس وهم يمرون من أمامنا. إنه لأمر مسلٍ الجلوس هناك. كان يمر من هناك سيل لا ينقطع من الناس ويقترب منك كل أنواع الفتيان ليبيعوك أشياء وأشياء. وكنت أُحب الجلوس مع أبي. كان ذلك حين كنا في ذروة السعادة. وكان الفتيان يتقدمون منا ليبيعوا أرانب مضحكة تقفز إذا ضغطت على بصيلة ثم يقترب منا هؤلاء الفتيان وحينذاك يبدأ أبي بممازحتهم. كان باستطاعته الحديث باللغة الفرنسية كما يتكلم الإنجليزية. وكان هؤلاء الفتيان يعرفونه لأن من السهل دائماً تمييز فارس سباق وكنا نجلس دائماً إلى نفس الطاولة واعتادوا على رؤيتنا هناك. وكان هناك فتيان يبيعون أوراق زواج وفتيات يبعن بيضاً من

مطاط حين تضغط عليه يقفز من داخله ديك، وفتى هزيل نحيل يمر حاملاً بطاقات بريدية عن باريس وهو يريها لكل شخص ولا يشتري أي شخص منها طبعاً وبعدئذٍ يعود ويرى الجانب السفلي من الرزمة وتبدو كلها بطاقات بريدية بذيئة فيقلب فيها الكثير من الناس ويشترونها.

يا الله، إنني أذكر الناس المرحين الذين اعتادوا المرور بنا. وفتيات تجلسن عند فترة العشاء بحثاً عن شخص ما يصحبهن إلى تناول الطعام وكن يتحدثن مع أبي ويبدأ أبي بإطلاق النكت باللغة الفرنسية وعندئذٍ كن يربتن على رأسي ويذهبن. وفي مرة جلست امرأة أمريكية مع ابنتها الطفلة إلى طاولة مجاورة لطاولتنا تتناولان البوظة (الآيس كريم) وأنا أمعن النظر بالفتاة التي كانت رائعة الجمال وابتسمت لها وابتسمت لي وكان هذا ما توصلت إليه معها لانني بحثت عن أُمها وعنها كل يوم، ورتبت الكلام الذي سأقوله لها وتساءلت إن كان ينبغي علي معرفتها وإن كانت ستسمح لي أمها بأخذها إلى أوتيي أو تريمبلاي، ولكنني لم أر أية واحدة منهما مرة أُخرى. على أي حال، أظن بأنه لم يكن أمراً مجدياً لأنني، وأنا استرجع الحادث الآن، تذكرت الطريقة التي رأيت بأنها كانت المثلى للتحدث إليها حينذاك: «عفواً قد أستطيع ذكر الحصان الذي سيفوز اليوم في أنجيين؟» وبعد كل هذا، لا بد أنها كانت تظن بأنني مزوّد بأخبار الخيل حينذاك بدلاً من أن أظهر لها بأنني كنت أهدي إليها هدية بذكر اسم الحصان الفائز.

ونحن نجلس في مقهى السلام أنا وأبي، حصلت مشاحنة كبيرة مع النادل لأن أبي شرب ويسكي وكان ثمن الكأس خمس فرنكات وهـذا يعنـي تقـديم نفحـة (بقشيش) ممتـازة حين يقـوم النَّـادل بعدٍ الأطباق. وكان أبي يشرب أكثر مما كنت قد رأيته يشرب من قبل، غير أنه لم يعد يمتطي صهوات الخيل الآن، كما قال لي بأن الويسـكي يخفف وزنه. ولكنني لاحظت بأن وزنه يزداد بالرغم من هذا. كان قد قطع علاقته وانفصل عن الجماعة القديمة في مايسونز وبدا بأنه يفضل الجلوس في الشارع معي. ولكنه كان ينفق نقوده على السباق كل يوم. إنه يشعر بالحزن بعد السباق الأخير، كما لو انه خسر في ذلك اليوم، ويبقى الحزن مسيطراً عليه حتى نصل إلـى طاولتنـا في المقهى ويحتسي أول كأس ويسكي وحينذاك تتحسن حاله.

كان يقرأ باري سبورت (رياضة باريس) وينظر إلـيّ ويقـول: «أين فتاتك يا جو؟». ليمزح معي لأنني أخبرته عن فتـاة ذلك اليوم التي كانت تجلس إلى الطاولة المجاورة. ويحمر وجهي، ولكنني كنت أُحب أن يمزح معي عنهـا. كان هذا المـزاح يثير فيّ شعـوراً طيباً. «ابق عينيك مفتوحتين بحثاً عنها يا جو، ستعود».

كان يسألني أسئلة عن أشياء ويضحك على بعض الأشياء التـي أقولها. ثم يبدأ بالحديث عن أشياء. عن ركوب الخيل في مصر أو في ساينت موريتز على الجليد قبل موت أبيه وعن فترة الحرب حين كانت تنتظم حفلات سباق الخيل باستمرار في جنـوب فرنسـا دون جوائـز ومراهنات أو جمهور أو أي شيء آخر وذلك للحفاظ على نشاط سلالة

الخيل . وتكلم عن خيول سباق يعتليها فرسان ويعدون بها حتى تكاد تنفق . ياه ، إنني أستطيع أن أصغي إلى أبي يتحدث لمدة ساعة خصوصاً حين يكون قد احتسى بضعة كؤوس من الويسكي . كان يخبرني عن حياته حين كان فتى يافعاً في كنتكي ويخرج لصيد حيوان الراكون والأيام السالفة في الولايات المتحدة قبل أن تسوء الحالة هناك . وكان يقول : «حين نحصل على جائزة محترمة من السباق سنعود إلى الولايات المتحدة وتذهب إلى المدرسة» .

سألته :

ـ لماذا أعود إلى هناك للذهاب إلى المدرسة والحالة سيئة هناك؟

كان يقول :

ـ الأمر مختلف الآن .

ويذهب إلى النادل ويدفع قيمة كومة الأطباق ونأخذ سيارة أُجرة إلى محطة قطارات ساينت لازار (جار سينت لازار) ونركب القطار إلى مايزونس .

وفي يوم ما ، وبعد سباق خيول عبر الحقول للعرض ، اشترى أبي الحصان الفائز بمبلغ ٣٠,٠٠٠ فرنك . وكان ينبغي عليه المزايدة قليلاً للحصول عليه ولكن الإسطبل سمح له بالإنطلاق أخيراً وحصل أبي على رخصته وألوانه خلال أُسبوع . ياه ، شعرت بالإعتزاز والفخر حين أصبح أبي مالكاً لحصان . ووضعه في اسطبل مع تشارلز درايك وتوقف عن الذهاب إلى باريس وبدأ يجري به ويفرز العرق مرة أُخرى ، وكنت أنا وهو نؤلف كل جماعة الإسطبل . كان اسم

حصاننا جيلفورد، وكان من سلالة ايرلندية وجميلاً وواثباً ماهراً عن الحواجز. رأى أبي بأن تدريبه له وركوبه عليه، بنفسه، استثمار مجز له. وكنت فخوراً بكل شيء واعتقدت بأن الحصان جيلفورد حصان بنفس جودة ووركلاود. كان حصاناً رائعاً يقفز بقوة، وكميتاً، سريعاً جداً في الأرض المنبسطة، اذا حثثته، كما وكان جميل المنظر.

أوه، كنت مغرماً به. وفي أول مرة بدأ أبي ركوبه، كان ترتيبه الثالث في سباق الحواجز لمسافة ٢٥٠٠ متر، وحين ترجل أبي عنه في مربط الخيل، وهو يتصبب عرقاً وسعيداً، وذهب ليزن نفسه، أحسست بالفخر والإعتزاز به كما لو كان هذا هو السباق الأول الذي يشترك فيه. وحين ينقطع شخص ما عن ركوب الخيل لمدة طويلة من الزمن فإنك لا تصدق بأنه كان قد ركب الخيل في السابق. أصبح الأمر كله مختلفاً الآن لأن السباق في ميلانو، حتى السباقات الكبيرة، لم تكن تبدو وكأنها تشكل أي فرق لأبي، وحين كان يفوز لم يكن يحس بالإنفعال وأصبح الوضع الآن مختلفاً لأنني كنت لا أكاد أنام في الليلة السابقة للسباق، وكنت أعرف بأن أبي منفعل أيضاً حتى وإن لم يظهر هذا عليه. إن ركوب حصانك الخاص والمشاركة بالسباق كصاحب حصان يشكل وضعاً مختلفاً تماماً.

وفي المرة الثانية التي ركب فيها أبي حصانه جيلفورد للمشاركة في سباق، كان في يوم أحد ممطر في أويتي للمنافسة على جائزة مارا (بري دي مارا) في سباق الحواجز لمسافة ٤٥٠٠ متراً. وحالما خرج بحصانه رأيته من على منصة المشاهدين بالمنظار الذي اشتراه لي لأشاهدهم به. بدأوا السباق من الطرف البعيد لميدان السباق وكانت

هناك مشكلة بالنسبة للحاجز. أثار شيء ما يضع غمامة نظارات واقية ضجة كبيرة وتراجع دائراً من مكان إلى آخر وضرب بالحاجز مرة، ولكنني تمكنت من رؤية أبي بسترته السوداء وصليب أبيض وطاقية سوداء يمتطي صهوة جيلفورد ويربّت عليه بيده. ثم اندفعوا قافزين واختفوا عن الأنظار خلف الأشجار والجرس القرصي يقرع داعياً لفرصة العمر النادرة وبوبيات آلة تذاكر الرهان تفرقع هابطة. يا إلهي، كنت منفعلاً إنفعالاً كبيراً وكنت أخشى أن أنظر إلى الخيول، ولكنني ثبّت المنظار على المكان الذي سينطلقون منه حين يخرجون من وراء الأشجار، ومن ثم خرجوا والسترة السوداء في الترتيب الثالث والكل يبحر كسفينة فوق الحاجز مثل طيور. ثم اختفوا عن الأنظار مرة أُخرى وظهروا صاعدين وهابطين التل والكل يعدو عدواً رائعاً وجميلاً وسهلاً متجاوزين السياج بسهولة على شكل مجموعة متناسقة وابتعدوا عنا ككتلة متراصة. وكانوا كلهم مجتمعين ككتلة واحدة ويندفعون اندفاعاً سلساً حتى بدا كما لو كنت تستطيع المرور فوق ظهورهم. ثم تقوسوا وهم يقفزون فوق السياج المرتفع المزدوج ووقع شيء ما. لم أستطع رؤية ما الذي وقع، وخلال دقيقة، اعتدل الحصان وهرول متحرراً واندفعت مجموعة الخيل وهي ما تزال متراصة لتدور بدورة طويلة إلى اليسار إلى داخل الخط المستقيم من الميدان. قفزوا فوق الجدار الحجري وتقدموا متزاحمين في أحد الجانبين المستقيمين لميدان السباق نحو حاجز الماء الكبير أمام منصات المشاهدين. رأيتهم يقتربون، وصحت بأبي حين مر بي وكان في المقدمة على بعد مسافة واحدة تقريباً وهو

يعتلي صهوة جواده خفيفاً، مثل قرد، وكانوا يتسابقون للوصول إلى حاجز الماء. قفزوا عن حاجز الماء الضخم ككتلة متراصة ثم تصاعد صوت صدمة ومال حصانان جانباً خارج الحاجز وتابعا العدو وتكوّمت ثلاثة خيول. ولم أستطع أن أرى أبي في أي مكان. رفع حصانٌ نفسه على ركبتيه ليعتدل وفارسه يمسك بلجامه معتلياً صهوته وتابع الجري وهو يسوطه ليصل إلى المكان الذي يحقق الكسب. اعتدل الحصان الآخر وانطلق وحيداً يهز رأسه، وهرول وعنان اللجام يتدلى والفارس ملقى على أحد جانبي الدرب على السياج. ثم انقلب جيلفورد على أحد الجانبين بعيداًعن أبي ونهض وشرع يعدو على ثلاثة أرجل وقد رفع حافره الأمامي ليتدلى أمامه بينما بقى أبي منطرحاً هناك على العشب متمدداً ووجهه إلى الأعلى وقد غطى الدم كل جانب رأسه. جريت هابطاً منصة المشاهدين وشققت طريقي مخترقاً جمهرة من الناس ووصلت إلى السياج، وأمسك بي شرطي ومنعني من الحركة بينما خرج حاملاً نقالة وراء أبي في الجانب الآخر من خط السباق رأيت ثلاث خيول تندفع كمجموعة واحدة خارجة من وراء الأشجار وتقوم بالقفز.

كان أبي ميتاً حين نقلوه، وبينما كان طبيب يتنصّت إلى قلبه بشيء مثبّت في أُذنيه، سمعت طلقة تخرج من خط السباق ودلّ هذا على أنهم قتلوا جيلفورد. تمددت بجانب أبي حين حملوا النقالة إلى داخل غرفة المستشفى وأمسكتُ بالنقالة صارخاً وبكيت، وبدا شديد البياض وهالك وميّت بشكل بشع جداً، ولم أستطع منع نفسي من التفكير بأنه إذا كان أبي قد مات فإنهم لم يكونوا ليطلقوا النار على جيلفورد. ربما

تحسّن حافره. لا أدري. لقد أحببت أبي حباً جماً.

ودخل رجلان، وربّت أحدهما على ظهري وتقدم وألقى نظرة على والدي وسحب ملاءة عن السرير السفري وفرده فوقه، بينما كان الآخر يتصل هاتفياً ويتكلم باللغة الفرنسية طالباً إرسال سيارة الإسعاف لتأخذه إلى مايزونس. ولم أستطع التوقف عن البكاء، البكاء والنشيج، ودخل جورج جاردنير وجلس إلى جانبي على الأرض وأحاطني بذراعه، وقال: «هيا بنا يا جو، أيها الولد الشجاع. انهض وسنخرج لننتظر وصول سيارة الإسعاف».

خرجت أنا وجورج إلى البوابة وكنت أُحاول أن أتوقف عن الصراخ ومسح جورج وجهي بمنديل وكنا نقف إلى الخلف قليلاً بينما كان الجمهور يخرج من البوابة، ووقف فتيان قريباً منا ونحن ننتظر خروج الجمهور من البوابة وكان أحدهما يعد كومة من تذاكر الرهان وقال: «حسناً، أصاب بَتْلير ما يستحقه».

قال الفتى الآخر: «لا يهمني ما أصاب ذلك النصّاب. لقد وقع في الحفرة التي حفرها».

قال الفتى الآخر: «وهذا رأيي كذلك».

ثم مزق مجموعة من التذاكر نصفين.

نظرَ جورج جاردنير إليّ ليرى إن كنتُ قد سمعت ما قاله الفتيان وإن كان هذا قد أثّر عليّ، وقال: «لا تستمع إلى ما قاله هذان الصعلوكان يا جو. لقد كان والدك رجلاً رائعاً».

ولكنني لم أكن أدري. يبدو بأنهم حين يبدأون فإنهم لا يوفرون شيئاً ضد أي شخص.

نهر كبير ذو قلبين :

الجزء الأول

استلقى مايرا ساكناً ورأسه على ذراعيه ووجهه في الرمل . أحس بالدفء واللزوجة من النزيف . وكان يحس بالقرن في كل مرة ينغرز فيه . وأحياناً، كان الثور يخبطه برأسه فقط. دخل القرن مرة جسده حتى نهايته حتى أحس به يغوص في الرمل . أمسك شخص ما الثور من ذيله . كانوا يصرخون في وجهه ويشتمونه ويلوحون بالكاب أمام وجهه . وابتعد الثور بعدئذٍ. رفع بعض الرجال مايرا وبدأوا يجرون به نحو الحواجز خلال البوابة المؤدية إلى الممر الذي يدور أسفل المدرّج المسقوف إلى المستوصف . مددوا مايرا على سرير سفري وخرج أحد الرجال بحثاً عن طبيب . أحاط الأخرون به . حضر الطبيب راكضاً من الحظيرة حيث كان يخيط خيول النخّازين . كان عليه أن يتوقف عن هذا العمل ويغسل يديه . تصاعد صوت صياح في المدرج المسقوف في الأعلى . أحس مايرا بأن كل شيء يكبر ويكبر ومن ثم يصغر ويصغر. ثم أصبح أكبر فأكبر فأكبر ومن ثم أصغر فأصغر. ثم بدأ كل شيء يجري أسرع فأسرع كما هو الحال حين يسرعون في شريط سينمائي . ثم مات .

واصل القطار سيره صاعداً الخط ثم اختفى عن الأنظار حول واحد من تلال غابة محروقة. جلس نيك على صرة من القنّب والفراش الذي رماه عامل الأمتعة خارج باب عربة الأمتعة. لم تكن هناك مُدن، لا شيء سوى سكة الحديد والأرض المحروقة. لم تخلّف الصالونات الثلاثة عشرة التي اصطفت على شارع من شوارع سيني أي أثر. وبرزت أساسات فندق مانشين هاوس فوق سطح الأرض. كانت الحجارة متشظيّة بفعل النار. وكانت هذه الحجارة هي كل ما بقي من مدينة سيني. حتى سطح الأرض كان قد احترق تماماً.

نظر نيك إلى أرض سفح التل المحروقة، حيث كان يتوقع أن يجد منازل المدينة المبعثرة، ثم سار أسفل خط سكة الحديد إلى الجسر المنتصب فوق النهر. وكان النهر هناك. جرى مدوِّماً تحت أكوام زنود خشب الجسر. نظر نيك إلى أسفل إلى الماء الصافي البني الذي لوّنه القعر المغطى بالحصى وراقب أسماك التروتة التي كانت تحافظ على وضعها المستقر في التيار بتموج زعانفها. وفيما كان يراقبها غيّرت مواضعها بزوايا سريعة حتى يمكنها البقاء في وضع مستقرٍ داخل الماء السريع. راقبها نيك لفترة طويلة.

رآها صامدة في أماكنها وأنوفها في التيار، بدت الكثير من أسماك التروتة في الماء العميق السريع مشوَّهة قليلاً وهو ينظر إلى أسفل الماء العميق خلال سطح البركة الزجاجي المحدب، وسطحها يندفع ويعلو رقراقاً في وجه مقاومة أكوام زنود خشب الجسر المنسابة. وفي قعر البركة استقرت أسماك التروتة الضخمة. لم يرها

نيك في باديء الأمر. ثم رآها في قعر البركة، أسماك تروتة كبيرة تبدو وهي تتماسك على قعر الحصى في ضباب حصى ورمل متغيّر يرتفع بدفقات يثيرها التيار.

ومن الجسر، نظر نيك إلى أسفل إلى بركة الماء. كان يوماً حاراً. وطار طائر رفراف إلى أعلى التيار. مضى زمن طويل لم ينظر فيه نيك إلى جدول ولم ير فيه سمك تروتة. كانت أسماكاً مرضية. وحين تحرك ظل طائر رفراف عالياً إلى أعلى التيار اندفعت سمكة تروتة إلى أعلى التيار مكونة زاوية طويلة، وحدد ظلها فقط معالم الزاوية ثم اختفى ظلها حين خرجت من سطح الماء، وعكست الشمس، وحين عادت إلى الجدول واندفعت تحت سطحه، بدا ظلها يعوم أسفل الجدول مع التيار، واتجهت دون مقاومة إلى موقعها تحت الجسر حيث تماسكت بقوة ووجهها في التيار.

وخفق قلب نيك حين تحرك سمك التروتة. عاودته مشاعره القديمة كلها. التفت ونظر إلى أسفل التيار. امتد أمامه وقد كسى قعره بالحصى وانتثرت فيه بقع ضحلة العمق وصخور ضخمة وبركة عميقة في المكان الذي يدور فيه حول قاع الجرف.

عاد نيك صاعداً إلى قضبان الربط متجهاً إلى صُرَّته المستقرة بين الجمرات الخامدة إلى جانب خط سكة الحديد. كان سعيداً. عدل وضع أحزمة الصرّة حولها، جاذباً الأحزمة بإحكام، قذف بالصرّة على ظهره وأخرج ذراعيه من بين أحزمة الكتف للصرة وخفّف بعض الجذب عن كتفيه بإسناد جبهته على شريط عريض من خط الرابية.

ومع ذلك كانت الصرّة ما تزال ثقيلة جداً. كانت أثقل مما يمكنه حملها وكان يحمل حقيبة جلدية في يده مائلاً إلى الأمام ليبقى ثقل الصرة مرتفعاً على كتفيه ومشى على طول الطريق الموازي لخط سكة الحديد مخلفاً المدينة المحروقة خلفة تسفعها الحرارة، ثم دار حول تل على جانبيه تلال عالية نثرت عليها النار بقعاً محترقة وسار على طريق تعود به إلى الريف. مشى على الطريق وهو يحس بألم من ضغط الصرّة الثقيلة. تصاعد الطريق باضطراد. كان الصعود إلى أعلى التل عملاً شاقاً. آلمته عضلاته وكان النهار حاراً غير أن نيك كان يحس بالسعادة. أحس بأنه ترك كل شيء خلفه، الحاجة إلى التفكير والحاجة إلى الكتابة وحاجات أُخرى. كل هذه الحاجات خلّفها وراءه.

منذ الوقت الذي نزل فيه من القطار ورمى فيه عامل الأمتعة صرته إلى خارج باب العربة المفتوحة، تغيّرت كل الأمور. كانت سيني قد احترقت كما التهمت النيران الريف وتغيّر، غير أن هذا ليس مهماً. لا يمكن أن تكون المنطقة كلها قد احترقت. إنه يعرف هذا. وقطع المسافة ماشياً على الطريق والعرق يتصبب منه تحت الشمس صاعداً سلسلة التلال التي تفصل سكة الحديد عن سهول الصنوبر.

جرى الطريق ممتداً أمامه، هابطاً إلى الأسفل من وقت إلى آخر، غير أنه كان يصعد دائماً إلى أعلى. واصل نيك الصعود. وأخيراً وصل الطريق إلى القمة بعد أن جرى موازياً سفح التل المحترق. ومال نيك إلى الخلف واستند على جذل شجرة وزلق أحزمة الصرة لتفلت من حول كتفيه. وأمامه، وعلى أقصى مدى بصره، امتد سهل

الصنوبر. وانتهت المنطقة المحترقة من الأرض عن يساره بسلسلة من التلال. وأمامه، ارتفعت جزر من أشجار صنوبر سمراء عالية في السهل. وعلى مسافة بعيدة عن يساره، شق مجرى النهر طريقه. تبعه نيك بعينيه ورأى تلألؤات الماء تحت الشمس.

لم يكن يمتد أمامه سوى سهل الصنوبر، حتى التلال الزرقاء البعيدة التي حددت معالم مرتفع أرض بحيرة لايك سوبيرير (البحيرة الكبرى). وكان يراها بصعوبة وهي ترتفع ارتفاعاً ضئيلاً وتمتد على بعد كبير تحت نور الحرارة فوق السهل. وإذا واصل النظر، كانت تختفي. غير أنه حين كان يلقي بنظرة سريعة غير محدّقة كان يراها هناك، تلال مرتفع الأرض البعيدة تلك.

جلس نيك متكئاً على جذل الشجرة المتفحّم ودخّن سيجارة. فيما كانت صرته تتوازن على قمة الجذل وهو يمسك بالأحزمة استعداداً لحملها وقد تقولب سطحها مكوناً تجويفاً بفعل ظهره. جلس نيك وهو يدخن، ملقياً بنظره إلى الأرض المنبسطة أمامه. لم يكن بحاجة إلى إخراج خريطة. كان يعرف من موقع النهر.

وفيما هو يدخن وقد مد رجليه أمامه، رأى جندباً يمشي على الأرض ثم صعد إلى جوربه الصوفي. وكان الجندب أسود. وفيما هو يمشي على الطريق متسلقاً، أفزع الكثير من الجنادب في التراب. كانت كلها سوداء. لم تكن جنادب كبيرة ناضجة صفراء وسوداء أو حمراء وسوداء تطنّ خارجة من غلاف أجنحتها السوداء وهي تطير عالياً. بل كانت جنادب عادية ولكنها كانت كلها سوداء

سخامية السواد. تساءل نيك عن نوع هذه الجنادب وهو يسير دون أن يفكر بها بعمق. والآن، وفيما هو يراقب الجندب الأسود يقرص صوف جوربه بشفة رباعية الإتجاهات، أدرك بأنها قد تحولت كلها إلى اللون الأسود بسبب بقائها في الأرض المحترقة. وعرف بأنه لا بد أن النار قد اشتعلت قبل سنة ولكن كل الجنادب كانت سوداء اللون الآن. تساءل كم من الوقت سيمضي عليها وهي على تلك الحالة.

وبحذر، مدَّ يده إلى أسفل وأمسك بالجندب من جناحيه. رفعه إلى الأعلى وواصلت كل أرجله بضرب الهواء كما لو أنها كانت تجري في الهواء، ثم نظر إلى بطنه المفصلي. نعم، لقد كان أسود اللون أيضاً وقزحياً حيث كان الظهر والرأس مغطيان بالغبار.

قال نيك متكلماً بصوت عالٍ لأول مرة:

- اذهب أيها الجندب، طِر بعيداً إلى مكان ما.

قذف بالجندب في الهواء وراقبه يبحر مبتعداً نحو جذل شجرة متفحّم عبر الطريق.

نهض نيك واقفاً. مال بظهره واتكأ على صرته حيث استقرت قائمة على جذل الشجرة وأدخل ذراعيه في أحزمة الكتف. وقف وصُرّته على ظهره على حافة التل وهو ينظر عبر الريف نحو النهر البعيد. ثم هبط سفح التل بعيداً عن الطريق. وكان سطح الأرض تحت قدميه صالحاً للمشي عليه. وعلى بعد مائتي ياردة أسفل سفح التل توقف خط النار. ومشى عبر سرخس جميل عالٍ، يصل إلى

كاحليه وعبر كتلة أشجار صنوبر. ثم عبر أرضٍ متموجة طويلة بارتفاعات وانخفاضات كثيرة، لها ملمس الرمل تحت الأقدام وعاد الريف ينبض بالحياة.

واصل نيك السير في نفس الإتجاه بالإستعانة بالشمس. كان يعرف من أين يريد عبور النهر وواصل السير عبر سهل الصنوبر متسلقاً الإرتفاعات الصغيرة فرأى ارتفاعات أُخرى أمامه، وفي أحيان أُخرى رأى من قمة أرض مرتفعة جزيرة صلبة كبيرة من الصنوبر على يمينه أو يساره. وقطع بعض عساليج سرخس الخلنج الحلو ووضعها تحت أحزمة صرته. سحقها الإحتكاك وشم رائحتها وهو يمشي. كان تعباً وشديد الحرارة وهو يمشي عبر سهل الصنوبر غير المستوي السطح والخالي من الظلال. وكان يعرف بأنه يستطيع قطع النهر في أي وقت يشاء بالدوران إلى اليسار. لا يمكن أن يبعد النهر عنه بأكثر من ميل واحد. ولكنه تابع السير نحو الشمال ليقطع أطول مسافة من النهر يستطيع قطعها خلال مسيرة يوم واحد.

وبعد مرور بعض الوقت وفيما كان نيك يسير على قدميه أبصر إحدى أضخم جزر الصنوبر تنتصب فوق المرتفعات المنحدرة التي كان يعبرها. هبط إلى الأسفل وحين وصل ببطء إلى قمة سلسلة تلال دار واتجه نحو أشجار الصنوبر. لم تكن هناك أية أشجار صغيرة في جزيرة أشجار الصنوبر. وامتدت جذوع الأشجار باستقامة إلى أعلى أو مالت نحو بعضها البعض. كانت الجذوع مستقيمة وسمراء دون فروع. كانت الفروع عالية فوقها. وتداخل بعضها ليكون ظلاً على أرضية الغابة السمراء. وحول أجمة الأشجار امتدت أرض جرداء.

كانت سمراء وطرية تحت الأقدام فيما كان نيك يمشي فوقها. تراكمت عليها ابر الصنوبر وامتدت إلى ما وراء المسافة العريضة لفروع الأشجار العالية. كانت الأشجار قد نمت متطاولة وتحركت الفروع عالياً، مخلّفة، تحت الشمس، هذا الفضاء الأجرد الذي غطته بالظلال في وقت من الأوقات. وابتدأ امتداد السرخس الحلو حاداً عند طرف هذا الإمتداد لأرضية الغابة.

زلق نيك صرته عن ظهره واستلقى في الظل. تمدد على ظهره ونظر إلى الأعلى إلى أشجار الصنوبر. وشاعت الراحة في رقبته وظهره ومستدق ظهره حين تمدد. كان للأرض إحساس لذيذ على ظهره. نظر إلى الأعلى إلى السماء خلال الفروع ثم أغمض عينيه. فتحهما متجهماً ونظر إلى الأعلى مرة أُخرى. كانت تهب ريح في الأعلى بين الفروع. أغمض عينيه مرة أُخرى واستغرق في النوم.

استيقظ نيك متصلباً ومتيبساً. كانت الشمس على وشك الغروب. وكانت صرته ثقيلة والأحزمة مؤلمة وهو يحملها. مال معتدلاً والصرة على ظهره والتقط حقيبته الجلدية وانطلق خارجاً من بين أشجار الصنوبر عبر منخفض السرخس واتجه نحو النهر. عرف بأن المسافة لن تكون أبعد من ميل واحد.

هبط سفح التل المغطى بجذول الأشجار إلى داخل المرج. وفي طرف المرج كان النهر يندفع متدفقاً. أحس نيك بالسرور لوصوله إلى النهر. مشى إلى أعلى الجدول عبر المرج. كان بنطاله مبللاً بالندى فيما هو يمشي. وبعد انقضاء النهار الحار، تجمع الندى

بسرعة وغزارة. لم يصدر عن النهر أي صوت. كان سريع الجريان جداً ورقراقاً. وفي طرف المرج، وقبل أن يتسلق قطعة أرض عالية لنصب خيمة، نظر نيك إلى النهر إلى أسماك التروتة القافزة. كانت ترتفع قافزة نحو الحشرات التي كانت تصل من مستنقعات في الجانب الآخر من الجدول حين غربت الشمس. قفزت الأسماك خارجة من الماء لتلتهمها. وفيما كان نيك يمشي خلال امتداد قطعة المرج على طول الجدول، قفزت أسماك التروتة عالياً خارج الماء. والآن وهو ينظر إلى أسفل النهر، فلا بد أن تكون الحشرات قد استقرت على سطح الماء لأن اسماك التروتة كانت تتغذى باضطراد في أسفل الجدول. وعلى أبعد مسافة استطاع مَدّ بصره إليها، كانت أسماك التروتة تقفز مرتفعة وهي تثير دوائر أسفل سطح الماء كما لو كانت السماء قد بدأت تمطر.

ارتفعت الأرض وقد كستها الغابة والرمل لتشرف على المرج وامتداد النهر والمستنقع. اسقط نيك صرّته وحقيبة قصبته وبحث عن قطعة أرض مستوية. كان جائعاً جداً وكان يريد نصب خيمته قبل أن يطبخ. وبين شجرتي صنوبر امتدت أرض مستوية تماماً. أخرج الفأس من الصُرّة وقطع جذرين بارزين. وسوّى ذلك قطعة أرض تكفي للنوم عليها. مَسَد التربة الرملية بيده ونزع كل شجيرات السرخس الحلو من جذورها. فاحت يداه برائحة زكية من السرخس الحلو. وسوّى الأرض المنتزعة الجذور. لم يكن يريد كتلاً ترابية تحت بطانيته. وبعد أن سوّى الأرض، نشر بطانياته الثلاث طوى إحداها على طيتين ووضعها على الأرض مباشرة. وفرد البطانيتين

الأخريين فوق البطانية الأولى.

وبفأسه قطع لوح صنوبر رقيق من أحد أجذال الأشجار وشقّه إلى أوتاد لتثبيت الخيمة. أرادها طويلة وصلبة لتمسك بالأرض. وبعد أن حُلَّتْ الخيمة وفُردت على الأرض، بدت الصرة صغيرة جداً. ربط نيك الحبل الذي يوصل الخيمة بالعمود القائم في منتصفها إلى جذع أحد أشجار الصنوبر وسحب الخيمة إلى أعلى مبعداً إياها عن الأرض بالطرف الآخر من الحبل وربطه بشجرة الصنوبر الأخرى. تدلت الخيمة على الحبل مثل بطانية قنّب منشورة على حبل غسيل. غرز نيك عموداً كان قد قطعه ووضعه تحت القمة الخلفية لقماش القنب وعمل منه خيمة بربطه الجوانب بالأوتاد. شد الجوانب إلى الأوتاد بإحكام ودفع بالأوتاد عميقاً في الأرض بدقها في الأرض بالجزء المنبسط من الفأس حتى طمرت عروات الحبال وأصبح قماش القنب مشدوداً مثل سطح طبلة.

وعلى فوهة الخيمة، وضع نيك قماشاً شفافاً ليمنع البعوض من الدخول. زحف داخلاً من تحت حاجز البعوض ناقلاً أشياء مختلفة من الصرة ليضعها على رأس الفراش تحت ميلان القنب. وفي داخل الخيمة، تسلّل النور خلال القماش القنبي البني اللون. انبعثت منها رائحة بهيجة إلى النفس. أوحى المكان بالغموض والألفة البيتية. كان نيك سعيداً وهو يزحف داخلاً الخيمة. لم يكن مغتماً طيلة النهار ولكن الأمر مختلف هنا. لقد انجزت الأعمال الآن. كان عليه القيام بهذا العمل. وأنجزه الآن. كانت رحلة شاقة. وكان تعباً جداً. لقد أُنجز ذلك العمل. لقد نصب مخيّمه. واستقر. لا شيء يمكنه

المساس به. إنه مكان ملائم للتخييم. أصبح هناك في المكان المناسب. أصبح في بيته الذي صنعه بنفسه. إنه جائع الآن.

خرج زاحفاً تحت القماش الشفّاف. كان الظلام مخيماً تماماً في الخارج. وكان داخل الخيمة أكثر نوراً.

اقترب نيك من الصُرَّة ووجد، وهو يبحث بأصابعه. مسماراً طويلاً في كيس ورق يحتوي على مسامير في قاع الصرة. دقّه في شجرة الصنوبر وهو يمسك به جيداً ويطرقه بلطف بالجزء المنبسط من الفأس. عَلَّق الصرة على المسمار. كانت كل تمويناته في صرته. وأصبحت بعيدة عن الأرض ومحميّة الآن.

كان نيك جائعاً. لم يصدق بأنه كان، من قبل، أكثر جوعاً مما هو الآن. فتح علبة لحم فخذ الخنزير وفاصولياء وعلبة سباغيتي وأفرغها في المقلاة.

قال نيك:

- من حقي أن أتناول هذا النوع من الطعام إن كنت راغباً بحمله.

بدأ صوته غريباً في الغابة المظلمة. لم يتكلم مرة أُخرى.

أشعل ناراً بقطع خشب صنوبر قطعها بالفأس من جذل شجرة. وفوق النار، ثبَّت مشبكاً من الأسلاك دافعاً أرجله الأربعة إلى الأسفل في الأرض بجزمته. وضع نيك المقلاة على المشبك فوق اللهب. كان أكثر جوعاً. سخنت الفاصولياء والسباغيتي. حركها نيك وخلطها معاً. بدأت تطشطش مطلقة فقاقيع صغيرة ارتفعت بصعوبة إلى السطح. فاحت رائحة طيبة. أخرج نيك قنينة صلصة

طماطم وقطع أربع شرائح من الخبز. بدأت الفقاقيع تتصاعد إلى السطح بسرعة أكبر الآن. جلس نيك إلى جانب النار ورفع المقلاة. صَبَّ حوالي نصف محتويات المقلاة في طبق صفيح. وانتشرت ببطء على الطبق. كان نيك يعرف بأنها كانت أسخن مما يمكنه أكلها. صبّ عليها بعض صلصة الطماطم. عرف بأن الفاصولياء والسباغيتي ما زالتا ساخنتين جداً. نظر إلى النار ثم إلى الخيمة، لم يفسد طعمها بحرق لسانه. لم يستمتع لسنين عديدة بالموز المقلي لأنه لم يكن قادراً أبداً على الإنتظار حتى تبرد. كان لسانه حساساً جداً، كان جائعاً جداً. وعبر النهر في المستنقع وفي شبه الظلمة رأى ضباباً يتصاعد. نظر إلى الخيمة مرة أُخرى. حسناً. وأخذ ملء ملعقة من الطبق.

قال نيك:

- يا للمسيح.

قال بسعادة:

- يا لعيسى المسيح.

أكل كل ما في الطبق قبل أن يتذكر الخبز. أكمل نيك الطبق الثاني مع الخبز، ماسحاً الطبق ليصبح لامعاً. لم يتناول الطعام منذ أن احتسى قهوة وأكل شطيرة لحم الخنزير المقدّد في مطعم محطة سينت أغناس. كانت تجربة رائعة جداً. لقد أحسّ بنفس الجوع من قبل، غير أنه لم يكن قادراًعلى إشباعه. كان بإمكانه نصب خيمة قبل ساعات لو أراد هذا. كانت هناك كثير من الأماكن الصالحة للتخييم على ضفة النهر. ولكن هذا المكان رائع.

دسّ نيك قطعتيّ خشب صنوبر تحت المشبّك. التهبت النار. وكان قد نسي إحضار الماء لصنع القهوة. ومن الصُرَّة، أخرج دلو قنّب صغير مطوي وسار هابطاً التل وعبر طرف المرج واتجه إلى الجدول. كان الجانب الآخر من النهر محاطاً بضباب أبيض. كان العشب مبللاً وبارداً حين ركع على ضفة النهر وغمر دلو القنّب في الجدول. انتفخ الدلو وانجذب بقوة مع التيار. كان الماء ثلجي البرودة. شطف نيك الوعاء وحمله مليئاً إلى المخيم وفي الأعلى بعيداً عن الجدول لم يكن الطقس بارداً لهذه الدرجة.

دق نيك مسماراً كبيراً آخر وعلّق عليه الدلو وهو مليء بالماء. غمس وعاء القهوة وملأه إلى نصفه في الماء، ووضع قطع خشب أُخرى تحت المشبّك على النار ووضع الوعاء عليه. لم يتذكر أي رأي اتخذه حول هذا الموضوع. قرّر أن يدع الماء يغلي. تذكر الآن بأن هذه هي طريقة هوبكينز لصنعها. لقد جادل هوبكينز حول مواضيع كثيرة. وبينما كان ينتظر غليان القهوة، فتح علبة صغيرة من المشمش. إنه يحب فتح العلب. أفرغ علبة المشمش في كوب صفيحي. وبينما هو يراقب القهوة على النار احتسى شراب عصير المشمش بحذر أولاً حتى يمنعه من الإندلاق ثم متلذذاً وهو يمتص المشمش ليبتلعه. وكانت أطيب مذاقاً من المشمش الطازج.

غلت القهوة وهو يراقبها. ارتفع الغطاء وفارت القهوة وتفلها لتندلق على جوانب الإناء. رفعها نيك عن المشبّك. كان نَصْراً لهوبكينز. ووضع سكراً في كوب المشمش الفارغ وصبّ بعض القهوة من الإناء لتبرد. كانت أسخن مما يمكنه صبها فاستعمل قبعته

ليمسك بمقبض وعاء القهوة. ولم يكن ليدعها تنتقع في الإناء أبداً، خصوصاً الكوب الأول. يجب أن تكون على طريقة هوبكينز تماماً. يستحق هوب ذلك. كان شارب قهوة جاداً جداً. لقد كان أكثر الناس الذين عرفهم جدية. لم يكن ثقيلاً بل جاداً فقط. كان ذلك منذ وقت طويل. وكان هوبكينز يتكلم دون أن يحرك شفتيه. كان يلعب البولو. لقد كسب ملايين الدولارات في تكساس. إستدان أُجرة السيارة ليسافر إلى تشيكاغو حين وصلته برقية تعلمه بأن أول بئر كبيرة من آباره قد بدأ ينتج. وكان بإمكانه الإبراق طلباً للنقود. كان الأمر يستغرق وقتاً طويلاً. كانوا يدعون فتاة هوب «فينوس الشقراء». لم يبالِ هوب بهذا لأنها لم تكن فتاته الحقيقية. قال هوبكينز بثقة عظيمة بأن أحداً منهم لا يمكنه أن يسخر من فتاته الحقيقية. كان على صواب. سافر هوبكينز حين وصلته البرقية. حدث هذا على ضفة النهر الأسود. استغرقت البرقية ثمانية أيام لتصل إليها. أعطى هوبكينز مسدسه من نوع كولت عيار ٠,٢٢ الأوتوماتيكي إلى نيك. وأعطى آلة التصوير إلى بيل. كان ذلك ليتذكراه بهما. كانوا سيذهبون لصيد الأسماك في الصيف القادم. كان هوب هيد غنياً. قال بأنه سيشتري يختاً وسيقومون بالتجول على طول شاطيء بحيرة سويبرير (البحيرة الكبرى) الشمالي. وكان منفعلاً غير أنه كان جاداً. تبادل تحيات الوداع وشعر الجميع بالضيق. لقد قطعوا رحلتهم. لم يروا هوبكينز مرة أُخرى أبداً. كان ذلك منذ وقت طويل وعلى ضفة النهر الأسود.

احتسى نيك القهوة، القهوة طبقاً لطريقة هوبكينز. كانت القهوة

مُرَّة. ضحك نيك. إنها وضعت نهاية طيّبة للقصة. شرع عقله بالتفكير. عرف بأنه يمكنه خنق تفكيرة لأنه كان تعباً بما فيه الكفاية. دلق القهوة من الإناء ورمى بالتفل في النار. أشعل سيجارة ودخل الخيمة. خلع حذاءه وبنطاله وهو يجلس على البطانيات ولفّ حذاءه داخل بنطاله ليكوِّن منهما مخدة واندس بين البطانيات.

وفي الخارج وأمام الخيمة راقب وهج النار حين هبّت ريح الليل عليها. كانت ليلة هادئة. وكان المستنقع هادئاً تماماً. تمدد نيك تحت البطانية وهو يحس بالراحة. طَنَّت بعوضة لصق أُذنه. نهض نيك جالساً وأشعل عود ثقاب. كان البعوض قد حط على قماش القنب فوق رأسه. حرك نيك عود الثقاب بسرعة إلى الأعلى نحوها. أطلق البعوض هسيساً مرضياً في اللهب. انطفأ عود الثقاب. تمدد نيك مرة أُخرى تحت البطانية. دار إلى جنبه وأغمض عينيه. كان نعساً. وأحس بالنوم يداعب أجفانه. انكمش على نفسه تحت البطانية واستغرق في النوم.

نهر كبير ذو قلبين :

الجزء الثاني

شنقوا سام كاردينيلا في الساعة السادسة صباحاً في رواق سجن المقاطعة . وكان الرواق عالياً وضيقاً مع طبقات من زنزانات على كلا جانبيه . كانت كل الزنزانات مشغولة . كان الرجال قد أدخلوا في الزنزانات لشنقهم . وضع خمسة رجال حكم عليهم بالشنق في الخمس زنزانات العلوية . وكان ثلاثة من الذين سيشنقون ،زنوجاً. وكانوا خائفين جداً . جلس أحد الرجلين الأبيضين على سريره السفري ورأسه بين يديه . وتمدد الآخر على السرير السفري وقد التفت بطانية حول رأسه .

خرجوا إلى المشنقة من باب في الحائط. كان هناك سبعة منهم بما فيهم قسيسان . كانوا يحملون سام كاردينيلا . كان على هذا الحال منذ حوالي الساعة الرابعة صباحاً .

وبينما كانوا يربطون رجليه معاً رفعه حارسان ليقف معتدلاً فيما كان القسيسان يهمسان إليه، وقال أحد القسيسين : «كن رجلاً يا بني» . وحين اقتربوا منه بالقلنسوة ليدفنوا رأسه فيها، فقد سام

سيطرته على عضلته العاصرة. أفلته الحارسان اللذان كانا يمسكان به ليقف معتدلاً. أحس كلاهما بالإشمئزاز، سأل أحد الحارسين: «ما رأيك بكرسي، هل يصلح؟». قال رجل يعتمرقبعة ديربية: «الأفضل أن تحضر كرسياً».

وحين خطوا إلى الخلف على السقّالة خلف الكتلة الساقطة التي كانت ثقيلة جداً ومصنوعة من البلوط والفولاذ ومتدلية على كريات التحميل، تُرك سام كاردينيلا جالساً هناك وقد ربط بإحكام وأصغر القسيسين سناً يركع إلى جانب الكرسي. قفز القسيس راجعاً إلى المشنقة قبل أن تسقط الكتلة بلحظات.

* * *

في الصباح، كانت الشمس مرتفعة في السماء وبدأت الخيمة تسخن. زحف نيك خارجاً من تحت شبكة البعوض المتدلية على فوهة الخيمة لينظر إلى الصباح. وكان العشب، وهو يضع يديه عليه ليخرج من الخيمة، مبللاً. حمل بنطاله وحذاءه في يديه. كانت الشمس فوق التل تماماً. امتد أمامه المرج والنهر والمستنقع وانتصبت أشجار البتولا في خضرة المستنقع على الجانب الآخر من النهر.

كان النهر صافياً ويجري بسرعة في الصباح الباكر وعلى بعد حوالي مائتي ياردة، طفت ثلاثة زنود من الخشب من أحد جانبي الجدول حتى الجانب الآخر. جعلت الماء رقراقاً وعميقاً فوقها. وفيما كان نيك يلقي بأنظاره حوله، عبر حيوان المينك النهر

على زنود الخشب ودخل المستنقع . استثير نيك . أثاره الصباح الباكر والنهر. كان متعجلاً جداً ليتناول إفطاره، وكان يعرف بأن عليه فعل هذا . أشعل ناراً صغيرة ووضع إناء القهوة .

وبينما كان الماءيسخن في الوعاء أخذ قنينة فارغة وهبط من فوق حافة الأرض المرتفعة إلى المرج . كان العشب مبللاً بالندى وأراد نيك أن يمسك بجنادب ليعمل منها أطعماً قبل أن تجفف الشمس العشب . وجد الكثير من الجنادب الجيدة . كانت متجمعة على قاعدة سيقان العشب . وكانت بعضها تتعلق بسيقان الأعشاب أحياناً . كانت باردة ومبللة بالندى، ولم يكن باستطاعتها القفز إلا بعد أن تدفئها الشمس . التقطها نيك وأخذ المتوسطة الحجم ذات اللون البني فقط ووضعها في القنينة . قلب نيك زند خشب فوجد تحت حماية طرفه عدة مئات من الجنادب . كان بيتاً لإيواء الجنادب . وضع نيك حوالي خمسين من الجنادب المتوسطة الحجم البنية اللون في القنينة . وفيما كان يلتقط الجنادب أحست الأخريات بدفء الشمس وشرعت تقفز مبتعدة. طارت حين قفزت . في أول الأمر طارت وبقيت متيبّسة حين استقرت عل الأرض كما لو كانت ميتة .

كان نيك يعرف بأنه في الوقت الذي سينهي فيه تناول إفطاره فإنها ستستعيد حيويتها العادية . ومن غير وجود ندى على العشب ستستغرق نهاراً كاملاً للإمساك بملء قنينة من الجنادب الصالحة للأطعم كما وسيكون عليه سحق العديد منها بضربها بقبعته . غسل يديه في الجدول . كان منفعلاً لقربه منه . ثم سار ماشياً نحو الخيمة . كانت الجنادب تقفز، وهي متصلبة، في العشب . وفي القنينة، وبعد

أن أحست بالدفء يسري في أجسامها، شرعت تقفز ككتلة واحدة. أدخل نيك قطعة من عصا صنوبر في فوهة القنينة كسدّادة. سدت فم القنينة بشكل يمنع الجنادب من الخروج ويسمح بمرور ما يكفي من الهواء.

دحرج الزند وأدرك بأنه يستطيع الحصول على الجنادب من هناك كل صباح.

وضع نيك القنينة المليئة بالجنادب القافزة وأسندها عى جذع شجرة صنوبر. وخلط بسرعة بعض دقيق الحنطة السوداء بالماء، بنسبة كأس واحدة من الدقيق مقابل كأس واحدة من الماء، وحركها بلطف. ووضع حفنة من القهوة في وعاء القهوة وغرف كتلة من الشحم من علبة وزلقها في المقلاة الساخنة لتطشطش وتفرقع. وفي المقلاة المدخنة صبّ بلطف خليط الحنطة السوداء المخفوق. انتشر مثل حمم البراكين، والدهن يتطاير بقوة. وبدأت كعكة الحنطة السوداء تتصلب حول الأطراف ثم أصبحت بنية اللون ومن ثم صلبة هشة. وأطلق السطح فقاقيع ببطء وأصبح مسامياً. ودفع نيك تحت السطح البني قطعة من عود صنوبر جديد. هزّ المقلاة إلى الجوانب وانحل التصاقها بالسطح. فكر: لن أُحاول قلبها. زلق قطعة الخشب النظيفة تحت كامل الكعكة وقلبها على وجهها. وطشطشت في المقلاة.

حين طهيت عاد وصب دهناً جديداً على المقلاة. استعمل كل الكتلة التي خفقها. عمل منها كعكة كبيرة أُخرى وكعكة صغيرة.

أكل نيك الكعكة الكبيرة والصغيرة بعد فرش زبدة التفاح على سطحها. وضع زبدة التفاح على الكعكة الثالثة وطواها مرتين ثم لفها بورقة مزيّتة ووضعها في جيب قميصه. أرجع مرطبان زبدة التفاح إلى الصرة وقطع الخبز مكوناً منه شطيرتين.

وجد في الصرة بصلة كبيرة. قطعها إلى قسمين ونزع القشرة الخارجية الحريرية. ثم قطع أحد النصفين إلى شرائح وصنع شطائر بصل منها. لفّها في الورقة المزيّتة وزرر عليها جيب قميصه الكاكي الآخر. قلّب المقلاة رأساً على عقب على المشبّك وشرب القهوة المحلاة ذات اللون البني الأصفر مع الحليب المركز فيها ثم رتّب الخيمة. كانت خيمة رائعة.

أخرج نيك قصبته المفكّكة من غلاف القصبة ووصلها وقذف بغلاف القصبة إلى داخل الخيمة. ثبّت عليها البكرة وأمرّ الخيط من خلال عيون الحلقات. وكان عليه أن يمسك بها ويحولها من يد إلى أخرى وهو يمرر الخيط فيها، وإلا كانت ستسقط بفعل ثقلها نفسه. وكان خيطَ ذبابة ثقيلاً مزدوج الفتيلة. دفع به نيك ثمانية دولارات قبل مدة طويلة. صُنع ثقيلاً حتى يرتفع مرتداً في الهواء ويتقدم إلى الأمام منبسطاً وثقيلاً وباستقامة حتى يكون من الممكن قذف ذبابة طعم ليس لها وزن. فتح نيك صندوق أوتار الطعم المصنوع من الألمنيوم. كانت أوتار الطعم ملفوفة في حشيتين من قماش الفانيلا الرطبة. كان نيك قد بلل الحشيتين بمبرد ماء في القطار المتجه إلى سينت أغناس. أصبحت أوتار الديدان في الحشيتين الرطبتين وأخرج نيك دودة واحدة وربطها بعروة في نهاية خيط ذبابة الطعم الثقيل. ثبت شصاً

على طرف وتر الطعم . كان شصاً صغيراً ودقيقاً جداً ونابضاً .

أخرجه نيك من محفظة شصوصه ، وهو جالس وقد وضع القصبة على حجره . اختبر العقدة ونابض القصبة بشد الخيط حتى أصبح متوتراً . تملكه إحساس طيب وكان حريصاً على أن لا يدع الشص يعض إصبعه .

بدأ بالهبوط إلى الجدول وهو يحمل الصنارة وقنينة الجنادب تتدلى من رقبته بسير جلدي مربوط بنصف عقدة حول عنق الزجاجة . وتدلت شبكته بكلاّبة مثبّتة في حزامه . وفوق كتفه ، استقر كيس طحين طويل مربوط عند كل زاوية على شكل إذن . التف الحبل حول كتفه . وتدلى الكيس خافقاً مهتزاً بين رجليه .

أحس نيك بالإرتباك والسعادة المهنيّة وقد تدلت كل أدواته منه . واهتزت زجاجة الجنادب على صدره . وفي قميصه ، انتفخت جيوب الصدر بغذائه ومحفظة ذباباته .

خطا إلى داخل الجدول . وكانت صدمة . والتصق بنطاله بإحكام على رجليه . أحس بالحصى تحت حذائه . كان الماء صدمة باردة صاعدة .

وفيما هو يندفع ، دوّم التيار حول رجليه . وفي المكان الذي وصل إليه ، ارتفع الماء فوق ركبتيه . وخوّض مع التيار . انزلق الحصى تحت حذائه . ألقى نظرة إلى الأسفل إلى دوّامات الماء تحت كل رجل وأمال القنينة ليخرج جندباً .

قفز أول جندب من عنق الزجاجة وخرج إلى الماء . امتصته

الدوّامة المكوّنة حول رجل نيك اليمنى ثم صعد إلى السطح على مسافة قصيرة أسفل التيار. طفا بسرع وهو يرفس برجليه. وفي دائرة سريعة مخترقاً السطح الأملس اختفى الجندب. أخذته سمكة تروتة.

وأطل جندب آخر برأسه من القنينة. وتماوجت هوائياته. كان يخرج رجليه الأماميتين من الزجاجة ليقفز. أخرجه نيك من رأسه وأمسك به بينما ربط الشص الرقيق تحت ذقنه إلى الأسفل تحت الصدر ثم إلى داخل حلقات بطنه الأخيرة. أحكم الجندب الإمساك بالشص بقدميه الأماميتين وبصق نيك عصير التبغ عليه. أسقطه نيك في الماء.

وفيما هو يمسك بالقصبة في يده اليمنى ترك الخيط ينطلق مع جذب الجندب في التيار. وحل الخيط من البكرة بيده اليسرى وجعله يجري بحرية. رأى الجندب في موجات التيار الصغيرة. اختفى عن الأنظار.

أحس بجذبه في الخيط. جذب نيك الخيط المشدود. كانت هذه أول جذبة يقوم بها. وبينما هو يمسك بالقصبة الحيّة عبر التيار، لَفَّ الخيط إليه بيده اليسرى. انحنت القصبة بهزات، وسمكة التروتة تهتز ضد التيار. عرف نيك بأنها سمكة صغيرة. رفع القصبة في الهواء عالياً. انحنت القصبة بالجذب. رأى سمكة التروتة تهتز ورأسها وجسمها على مماس الخيط المتنقل في الجدول.

أمسك نيك الخيط في يده اليسرى وسحب سمكة التروتة إلى السطح وهي تضرب بوهن ضد التيار. كان ظهرها مرقشاً بلون

الحصى المغطى بالماء الصافي وجنبها يتلألأ تحت الشمس. انحنى نيك، والقصبة تحت ذراعه الأيمن، عاكساً يده اليمنى في التيار. أمسك بسمكة التروتة، التي لم تسكن أبداً، بيده اليمنى المبللة، بينما نزع شوكة الشص من فمها وقذف بها لتعود إلى الجدول.

تدلت مهتزة في التيار ثم استقرت في القعر إلى جانب حجر. مد نيك يده إلى الأسفل ليلمسها وقد غرقت ذراعه حتى المرفق في الماء. سكنت سمكة التروتة ثابتة في الجدول المتحرك، مستقرة على الحصى، إلى جانب حجر. وحين لمستها أصابع نيك، أحس بملمسها الناعم الندي تحت المائي، اختفت، اختفت تحت ظل عبر قعر الجدول.

فكر نيك: إنها بحالة جيدة. كانت تعبة فقط.

بلل يده قبل أن يلمس سمكة التروتة حتى لا يتلف الطبقة المخاطية الرقيقة التي تغطيها. إذا لمست سمكة التروتة بيد جافة فإن فطريات بيضاء تهاجم البقعة غير المحمية. وقبل سنين حين كان يصيد في جداول مزدحمة وقد أحاط به من أمامه وخلفه صيادون سريعي الحركة، صادف نيك مراراً وتكراراً أسماك تروتة ميتة فروية بالفطريات البيضاء، تنساب لتستقر أمام صخرة أو لتطفو وقد ظهر بطنها إلى الأعلى في بركة ما. لم يكن يحب صيد السمك مع أُناس آخرين في النهر. ما لم يكونوا من مجموعتك فإنهم يفسدون الصيد.

خاض نيك الجدول في التيار والماء فوق ركبتيه قاطعاً خمسين ياردة من الماء الضحل فوق كومة زنود خشب تصل بين ضفتي

الجدول. لم يلقم شصه بالطعم من جديد وكان يمسك به وهو يخوض في الجدول. كان متأكداً من أنه يمكنه الإمساك بأسماك تروتة صغيرة في الأماكن الضحلة، ولكنه لم يكن يريدها. لن تكون في المياه الضحلة أسماك تروتة كبيرة في هذا الوقت من النهار.

وارتفع الماء فوق فخذيه لاسعاً وبارداً. وأمامه، تجمع فيض من الماء المحجوز الرقراق خلف كتلة زنود الخشب. كان الماء داكن اللون ورقراقاً، وعلى اليسار امتد الطرف المنخفض من المرج، وعلى اليمين امتد المستنقع.

مال نيك إلى الخلف ضد التيار وأخرج جندباً من الزجاجة. ربط الجندب بخيط من الشص وبصق عليه لجلب الحظ الحسن. ثم سحب بضعة ياردات من خيط البكرة ثم قذف بالجندب أمامه إلى الماء السريع الداكن. طفا مبتعداً نحو قطع الخشب ثم جر ثقل الخيط الطعم إلى تحت السطح. أمسك نيك القصبة في يده اليمنى تاركاً الخيط يجري من بين أصابعه.

أحس بجذبة طويلة. جذب نيك ودبّت الحياة في القصبة وشاع فيها الخطر وانحنت انحناءة مزدوجة والخيط يتوتر ويخرج من الماء متوتراً كله بجذب ثقيل خطر مُضطرد. كان نيك يُحسّ باللحظة التي سينقطع فيها وتر الطعم في حالة إزدياد التوتر، فيُرخي الخيط حينذاك.

أطلقت البكرة صوتاً آلياً مسرسعاً والخيط يندفع منفلتاً منها بسرعة هائلة. لم يستطع نيك التحكم بها والخيط يندفع خارجاً ونغمة

البكرة تتصاعد والخيط ينفلت خارجاً.

وفيما كان باطن البكرة يظهر، توقف قلبه عن الإحساس بالإنفعال وهو يميل إلى الخلف عكس التيار المتسلق فخذيه والمشيع فيهما برودة ثلجية، ضغط نيك البكرة بقوة بإبهام يسراه. أصبح من الصعب وضع إبهامه داخل إطار عجلة البكرة. وحين زاد ضغطه، توتر الخيط فجأة وبشدة، وخلف زنود الخشب اندفعت سمكة تروتة ضخمة قافزة إلى الأعلى خارج الماء. وحين قفزت، خفض طرف القصبة. غير أنه وهو يسقط الطرف ليرخي الشدَّ والتوتر أحس باللحظة التي أصبح فيها التوتر شديداً جداً والجذب عنيفاً؛ من الطبيعي أن يكون الوتر قد قطع. لا مجال للخطأ بالإحساس بانفصال النابض عن الخيط الذي أصبح جافاً وقاسياً. ثم أصبح مرتخياً.

وفم نيك جاف وقلبه منقبض، لفّ الخيط على البكرة. لم ير نيك سمكة تروتة بهذا الحجم أبداً. كان فيها ثقل وطاقة لا يمكن كبحها ثم ظهر جسمها وهي تقفز من الماء. بدت كما لو أنها سمكة سلمون عريضة.

كانت يد نيك مرتعشة. لف الخيط على البكرة ببطء. لقد كانت الإثارة أكثر مما يحتمل. شعر بغموض وغثيان طفيف كما لو كان من الأفضل أن يجلس.

كان وتر الطعم قد قطع في المكان الذي رُبط بالشص. أمسك به نيك في يده. فكر نيك بسمكة التروتة وهي تستقر في مكان ما في القعر متماسكة وساكنة فوق الحصى أسفل بعيداً تحت النور، تحت زنود

الخشب والشص في فكها. عرف نيك بأن أسنان التروتة ستقطع الوتر الواصل بين الشص والخيط. لا بد أن الشص قد غرق داخل فكها. إنه متأكد بأن التروتة غاضبة. أي شيء بهذا الحجم سيغضب. تلك كانت سمكة تروتة. لقد علقت بالشص تماماً وبصلابة. بصلابة صخرة. أحس كما لو كانت صخرة وهو يسحبها. يا إلهي، إنها أكبر سمكة سمعت عنها في حياتي.

وتسلق نيك خارجاً من الماء إلى المرج ووقف هناك والماء يسيل على أسفل بنطاله ويخرج من حذائه وكان حذاؤه مبقبقاً. اقترب من زنود الخشب وجلس عليها. ولم يكن يريد أن يدفع بأحاسيسه نحو أي اتجاه.

حرك أصابع قدميه في الماء داخل حذائه وأخرج سيجارة من جيب صدره. أشعلها وقذف بعود الثقاب في الماء السريع الجريان تحت زنود الخشب. ارتفعت سمكة تروتة رقيقة صغيرة إلى عمود الثقاب وهو يدور مدوّماً في التيار السريع ضحك نيك. سينهي السيجارة.

جلس على زنود الخشب مدخناً ومجففاً نفسه في الشمس، كانت الشمس دافئة على ظهره، والنهر يجري أمامه ضحلاً داخلاً بين الأخشاب ومنعطفاً بين الأخشاب وفي المياه الضحلة وبين الصخور المائية الضخمة الملساء المتلألئة تلألؤاً لطيفاً وأشجار الارز والبتولا البيضاء على طول الضفة، وكانت زنود الخشب دافئة في الشمس، ناعمة عند الجلوس عليها ودون لحاء رمادية عند اللمس، وببطء،

تلاشت خيبة الأمل من نفسه . تلاشت ببطء الإحساس بخيبة الأمل الذي تملكه بحدة بعد الإثارة التي آلمت كتفيه . الحال حسن الآن . وفيما كانت قصبته تستقر على الزنود، ربط شصاً جديداً على وتر الطعم وهو يجذب الدودة بإحكام حتى تجمّعت حول نفسها في عقدة صلبة .

علق الطعم ثم التقط القصبة وسار إلى الطرف البعيد من زنود الخشب ليدخل الماء في مكان غير عميق جداً . وتحت وخلف زنود الخشب تكونت بركة عميقة . سار نيك حول رف صخور ضحل قرب شاطيء المستنقع حتى وصل إلى القاع الضحل من الجدول .

وعلى اليسار حيث ينتهي المرج وتبدأ الغابة، كانت هناك شجرة دردار مجتثة من جذورها . وبعد أن دحرجتها عاصفة، استقرت في الغابة وقد تجمعت على جذورها قاذورات نمت عليها أعشاب مكونة ضفة صلبة إلى جانب الجدول . وانقطع جريان النهر على حافة الشجرة المجتثة . ومن المكان الذي وقف عليه نيك، تمكن من رؤية القنوات العميقة مثل أخاديد شقها، في قاع مياه الجدول الضحلة، تدفق التيار . وغطّى الحصى المكان الذي كان يقف فيه، ووراءه غطى الحصى المكان وملأته صخور جلمودية وضخمة، وفي المكان الذي ينحني فيه النهر قرب جذور الأشجار، كان قاع النهر طينياً ودارت أوراق عريضة الأعشاب خضراء مدوّمة في التيار بين أخاديد الماء العميق .

علّق نيك القصبة على كتفيه وتركها تتدلى إلى الأمام والخيط

يتدلى منحنياً إلى الأمام أيضاً ورمى الجندب في أحد القنوات العميقة المليئة بالأعشاب. علقت سمكة تروتة واصطادها نيك.

وبينما كان نيك يمسك القصبة ويمدها إلى مسافة بعيدة نحو الشجرة المستأصلة من جذورها وهو يخوض راجعاً إلى الوراء في التيار، عالج سمكة التروتة وهو يغوص والقصبة تنثني وقد دبت فيها الحياة، وهي بعيدة عن خطر الوقوع بين الأعشاب المنتشرة في البقعة المكشوفة من النهر. وفيما كان نيك يمسك بالقصبة وهي تصبح حيّة ضد التيار، بدأ يجذب سمكة التروتة نحوه. اندفعت السمكة مبتعدة قليلاً ولكنها استمرت بالإقتراب منه، ونابض القصبة يلين للإندفاعات وهي تهتز أحياناً تحت الماء ولكنه كان دائماً يشدها نحوه. أرخى الصنارة أسفل التيار مع الإندفاعات. وفيما كانت القصبة تستقر فوق رأسه، دفع بسمكة في الشبكة ثم رفعها.

تدلت سمكة التروتة ثقيلة في الشبكة، تروتة مرقشة الظهر وفضية الجوانب في عيون الشبكة. أخرج نيك الشص من السمكة، جنبان ثقيلان جميل حملهما، وفك سفلي كبير، وزلقها وصدرها يرتفع وينخفض إلى داخل الكيس الطويل الذي يتدلى من كتفيه في الماء.

نثر نيك فم الكيس ضد التيار وامتلأ بالماء وأصبح ثقيلاً. رفعه وقعره ما يزال في الجدول والماء يندلق من جوانبه. وفي داخله في القعر استقرت سمكة التروتة حيّة في الماء.

تحرك نيك مع التيار. الكيس يغطس أمامه ثقيلاً في الماء، منجذباً من كتفيه إلى أسفل.

أصبح الطقس حاراً ولسعت حرارة الشمس قفا رقبته .

حصل نيك على سمكة تروتة جيدة . لم يكن يهمه أن يحصل على الكثير من أسماك التروتة . أصبح الجدول الآن ضحلاً وعريضاً . وتناثرت أشجار على كلا ضفتي النهر . وألقت الأشجار على الضفة اليسرى ظلالاً قصيرة على التيار في شمس قبل الظهر . كان يعرف نيك بوجود أسماك تروتة تحت كل ظل . وبعد الظهر ، بعد أن تكون الشمس قد اتجهت نحو التلال ، ستستقر أسماك التروتة في الظلال الباردة على الجانب الآخر من الجدول .

ستكون أكبر الأسماك مستقرة لصق الضفة . يمكنك التقاطها دائماً من هناك في أعلى النهر الأسود . وحين تهبط الشمس تتحرك كلها إلى داخل التيار . تماماً في تلك اللحظة التي تجعل فيها الشمس ؛ أثناء توهجها قبل أن تغرب ؛ المياه تعمي الأبصار ، فإنه يمكنك التقاط سمكة تروتة كبيرة في أي مكان في التيار . ويكاد يكون من المستحيل تقريباً اصطياد السمك حينذاك ، فسطح الماء يعمي الأبصار كمرآة تحت الشمس . من الطبيعي بأنك تستطيع صيد الأسماك أعلى الجدول غير أنه عليك في مجرى نهر مثل النهر الأسود أو مثل هذا النهر أن تخوض ضد التيار وفي مكان عميق تتجمع المياه فيه فوقك . وليس الصيد لهواً في أعلى نهر ضد تيار بهذاالعنف .

تحرك نيك في المياه الضحلة وهو يبحث بناظريه عن حفر عميقة . وكانت قد نمت شجرة زان لصق جانب النهر ، حتى أن أغصانها تدلت داخل الماء . وجرى الجدول راجعاً إلى الوراء تحت الأوراق . هناك دائماً أسماك تروتة في مكان كهذا .

لم يهتم نيك بالصيد في تلك الحفرة. وكان متأكداً بأن الصنارة ستعلق بالأغصان.

مع هذا، بدا المكان عميقاً. وأسقط الجندب في الماء حتى جرفه التيار تحت الماء ثم أرجعه تحت الغصن المتدلي. وانجذب الخيط بقوة وجذبه نيك.

اهتزت سمكة التروتة بقوة وقد برز نصفها خارج الماء بين أوراق الشجر والأغصان. علق الخيط. وسحب نيك بشدة وتحررت سمكة التروتة. لف الخيط على البكرة وهو يمسك الشص في يده، وسار إلى أسفل الجدول.

وكان أمامه ولصق الضفة اليسرى زند خشب كبير. رأى نيك بأن زند الخشب أجوف ويشير إلى أعلى النهر والتيار يدخله بسهولة وقد انتشرت مويجات صغيرة فقط على كل جانب من جانبيه. ازداد عمق الماء. كانت قمة زند الخشب الأجوف رمادية وجافة. واستقر جزء منه في الظل.

نزع نيك سدادة قنينة الجنادب وتعلق جندب بها. التقطه نيك وعلّقه في شص الصنارة ورمى به. أمسك بالقصبة وهو يبعدها حتى يتحرك الجندب على سطح الماء داخل التيار المتدفق إلى داخل زند الخشب الأجوف. أخفض نيك القصبة وطفى الجندب. أحس بجذبة قوية جداً. أدار نيك القصبة ضد الجذب. أثار إحساساً بأن الشص قد علق بالزند نفسه، لولا الإحساس الحي الذي نبض في القصبة.

حاول إجبار السمكة على الخروج والدخول في التيار. خرجت بثقل.

ارتخى الخيط، وظن نيك بأن سمكة التروتة قد أفلتت. وبعدئذٍ رآها قريبة جداً في التيار، هازة رأسها محاولة الإفلات من الشص. كان فمها عالقاً بالشص بإحكام وهو مغلق. كانت تناضل ضد الشص داخل التيار المتدفق الصافي. وفيما كان نيك يلف الخيط على شكل أنشوطة بيده اليسرى. أدار القصبة ليشد الخيط وحاول أن يدفع السمكة نحو الشبكة، ولكنها ابتعدت واختفت عن الأنظار وبقي الخيط ينتفض. صارعها ضد التيار سامحاً لها بالتخبط في الماء ضد نابض القصبة. ونقل القصبة إلى يده اليسرى جاراً السمكة إلى أعلى النهر حاملة ثقلها، ومتصارعة على القصبة، ثم سحبها إلى الأسفل إلى داخل الشبكة. ثم رفعها من الماء، نصف دائرة ثقيلة في الشبكة، والماء يقطر من الشبكة ثم نزع الشص منها وزلقها في الكيس.

فتح فم الكيس ونظر إلى الأسفل داخله إلى سمكتي التروتة الحيتين داخل الماء.

وفي الماء الذي يزداد عمقه، خوّض نيك واقترب من الزند الأجوف. رفع الكيس من الماء إلى أعلى رأسه وتخبّطت سمكتا التروتة حينما خرجتا من الماء، وعلّق الكيس لتبقى السمكتان غاطستين على عمق كبير في الماء. وجر نفسه على الزند وجلس والماء يسيل من بنطاله وجزمته إلى الجدول. وضع قصبته على

الأرض وانتقل إلى الطرف الظليل من زند الخشب وأخرج الشطائر من جيبه . غمس الشطائر في الماء البارد . حمل التيار كسرات الخبز بعيداً . أكل الشطائر وغرف ملء قبعته من الماء ليشرب ، وسال الماء من قبعته وهو يشرب .

وكان الطقس بارداً في الظل فيما هو جالس على زند الخشب . أخرج سيجارة وأشعل عود ثقاب ليشعلها . غرق عود الثقاب في الخشب الرمادي مكوناً أُخدوداً رقيقاً . مال نيك فوق جانب زند الخشب ووجد مكاناً قاسياً ، وأشعل عود الثقاب . جلس يدخن ويراقب النهر .

وإلى الأمام ، ضاق النهر واندفع نحو المستنقع . أصبح النهر رقراقاً وعميقاً وبدا المستنقع صلباً ، بأشجار أرز ، التصقت جذوعها ببعضها البعض ، وصلبت أغصانها . لم يكن من الممكن السير في مستنقع كهذا . كانت الأغصان تنمو على ارتفاع منخفض . كان عليك أن تبقى على مستوى سطح الأرض تقريباً حتى يمكنك أن تتحرك أقل حركة خلال المستنقع . لم يكن يمكنك شق طريقك بين الأغصان بكسرها . فكر نيك ، لا بد أن يكون هذا هو السبب الذي أدى إلى أن تكون الحيوانات التي تعيش في المستنقعات بُنيةُ على الشكل الذي هي عليه .

تمنى لو أنه أحضر شيئاً يقرأه . أحس برغبة بالقراءة . لم يحس بالرغبة بدخول المستنقع . نظر إلى أسفل النهر . مالت شجرة أرز ضخمة وغطّت كامل عرض الجدول . ووراء ذلك ، دخل النهر المستنقع .

لم يكن نيك يريد دخول المستنقع الآن. أحس بالنفورمن خوض عميق في ماء يزداد عمقاً ليصل إلى تحت إبطيه، ليصيد أسماك تروتة كبيرة في أماكن من المستحيل نقلها منها إلى البر. في المستنقع كانت الضفاف جرداء، وتشابكت أغصان أشجار الأرز فوق الرؤوس. . ولم تتخللها أشعة الشمس، إلا على شكل بقع، وفي المياه العميقة السريعة، في نصف العتمة، يكون صيد السمك مأساوياً. وفي المستنقع يكون صيد السمك مغامرة مأساوية. لم يكن يريد هذا. ولم يكن يريد السير مع تيار الجدول إلى مسافة أبعد اليوم.

أخرج سكينه وفتحها وغرزها في زند الخشب. ثم رفع الكيس ومد يده، وأخرج إحدى السمكتين. وفيما هو يمسكها قرب ذيلها بصعوبة وهي تنبض بالحياة في يده، خبطها بقوة على زند الخشب. فارتعشت السمكة وسكنت. وضعها نيك على زند الخشب في الظل وكسر رقبة السمكة الأخرى بنفس الطريقة. وضعهما جنباً إلى جنب على زند الخشب. كانتا سمكتي تروتة رائعتين.

نظفهما بشقهما من فتحة الشرج إلى قمة الفك. خرجت كل الأحشاء والخياشيم واللسان كقطعة واحدة. وكانتا كلتاهما ذكرين، شرائط لقاح طويلة بيضاء تميل إلى اللون الرمادي ملساء ونظيفة. وخرجت منهما كل أحشائهما نظيفة ومتماسكة. قذف نيك بفضلات السمكتين على الشاطيء ليعثر عليها حيوان المينك.

غسل سمكتي التروتة في الجدول. حين رفعهما في الماء بدتا له

كسمكتين حيتين . لم يختف لونهما بعد . غسل يديه وجففهما على زند الخشب . ثم وضع سمكتي التروتة على الكيس المفروش على زند الخشب ولفهما به وربط الرزمة ووضعها في الشبكة . كانت سكينة ما تزال قائمة ونصلها مغروس في زند الخشب . نظفها على الخشب ووضعها وفي جيبه .

نهض واقفاً على زند الخشب وهو يمسك بقصبته والشبكة تتدلى ثقيلة ، ثم خطا إلى داخل الماء وسار مثيراً رشاشاً من الماء نحو الشاطيء . تسلق الضفة وصعد ليدخل الغابة نحو الأرض المرتفعة . كان يتجه عائداً إلى المخيم . التفت إلى الوراء . بان النهر من بين الأشجار بصعوبة . هناك الكثير من الأيام المقبلة التي سيتمكن فيها من صيد الأسماك في السمتنقع .